

شَرْحُ
سَلَمِ الْوُضُوءِ
إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ

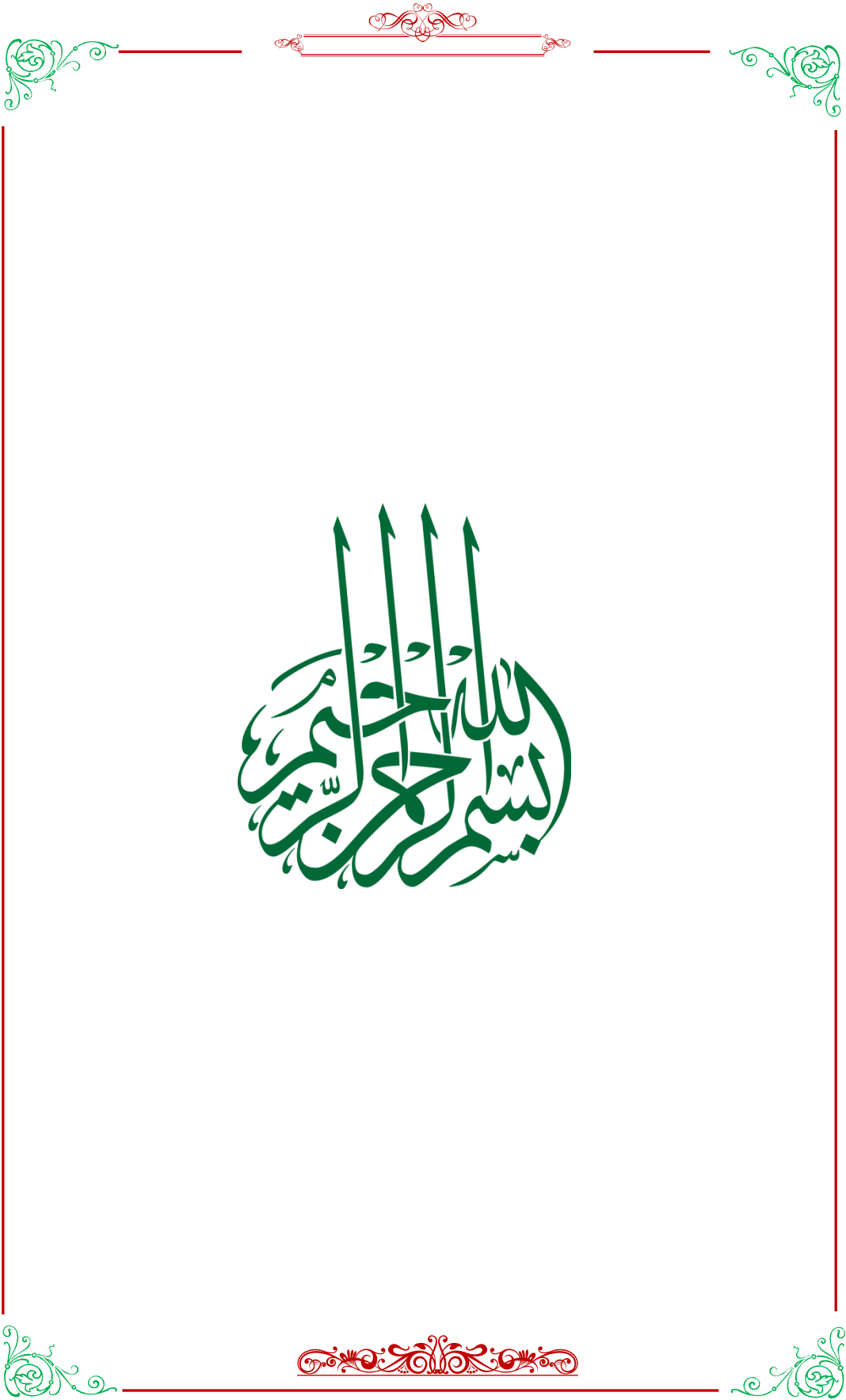
مُصَنَّفٌ:

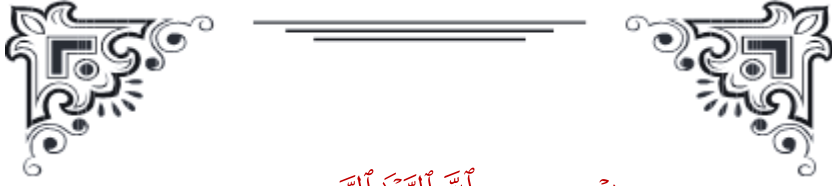
العلامة حافظ بن أحمد الحَكَمي

(ت ١٣٧٧ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ

مُصَرِّحُ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقِ الْمُرِّي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فما أنعم الله عزَّجَلَّ على عباده نعمةً؛ أعظم من أن عرَّفهم أنه لا إله إلا الله، ولا يطمئن القلب ولا يسكن إلا بتحقيق هذه الكلمة العظيمة، التي من أجلها خلقت جميع المخلوقات، وبها أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، وفي شأنها تُنصب الموازين، وتتطير الصحف، وتكون السعادة والشقاوة، وعلى حسب ذلك تُقسَّم الأنوار.

فحريٌّ بمن يريد نجاته أن يُشَمِّر عن ساعد الجدِّ في العلم بالله، وتحقيق العبودية له، التي هي الغاية التي شَمَّر إليها المُشَمِّرون، ولا يزال العبد كذلك حتى يعيش قرير العين بربه، فرحاً مسروراً بقربه؛ فيكون مُتحققاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه: ظفر بنعيمه وبهجته وسعادته أبد الآباد.

وبلوغُ المراتب العالية في تحقيق التوحيد لا يكون إلا بتعلُّم التوحيد ودراسته، خصوصاً في هذا الزمن المتأخر، الذي اشتدت فيه الغربة، وكثرت فيه الصوارف والفتن، والمخرجُ من هذه الفتن التي تنهش في هذه الأمة من كل جانب: هو في العلم النافع علم الكتاب والسنة، وأعلى ذلك وأسناه: «علم التوحيد» الذي هو أحسن الحسنات، وأصل دعوة الرسل، وأكمل ما فيها، بل ليس في دين المُرسَلين ولا في كتب ربِّ العالمين أمرٌ أعظم منه، فإن شرف العلم من شرف المعلوم، والله تعالى أشرف معلوم؛ فالعلم به وبحقِّه أشرف العلوم.

وهذه مدارسُ لمنظومة «سُلَّمِ الوصولِ إلى مباحث علم الأصول في توحيد الله واتباع الرسول ﷺ» للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ، المتوفى سنة سبع وسبعين وثلاث مئة وألف، وهو من أعلام عصره عِلْمًا وحفظًا وذكاءً وزكاءً، وهو من أقدر العلماء المتأخرين على قول الشعر، يقوله سَلِيْقَةً من غير تكلف، له منظوماتٌ علميةٌ كثيرة تشهد بجودة نظمه، وحسن أدبه، وصلاح نفسه، ووفرة علمه، ومتمين ديانته، وتبحره في العلوم رَحِمَهُ اللهُ رحمةً واسعة.

وله أنظامٌ غير المنظومات العلمية، ينظم نصيحةً، أو مُساجلةً لصديق، أو خاطرة، وقد توفي رَحِمَهُ اللهُ صغيراً ابن خمس وثلاثين سنة، لكنه خَلَفَ آثاراً علميةً نافعة، لا يستغني عنها طالب علم، بقيت دُخْرًا له بعد موته، وقد صدق الإلييري حين قال عن العلم:

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبَا

فهذا وجهٌ من نفع العلم لصاحبه بعد موته: أنه صدقةٌ جاريةٌ يجري للعالم به أجره، وقد قال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١). والولد الصالح يدعو لأبيه مُدَّةَ حياته، فإذا مات انقطع الدعاء، أمّا العلم فيبقى نفعه للعالم ولو بعد موته بمئات السنين؛ لذا قالوا: «علم الرجل ولده المُخلد».

فَقُرْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

ومنظومته هذه خلاصةٌ مُختصرة، وهي عقيدةٌ صافيةٌ واضحةٌ مطابقةٌ للفقرة، ترى فيها أنوارَ الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة، أضف إلى ذلك أنها ما شئت من سلاسةٍ ووضوحٍ، وعذوبة لفظٍ، وحسن سبكٍ، وقد نشر الله قبول هذه المنظومة، وبسط نفعها؛ فأقبل عليها أهل العلم وطلبتها حفظاً ودراسة؛ لما امتازت به من سهولةٍ ووضوحٍ، وشمولٍ لجُلِّ

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٦٣١).



مسائل الاعتقاد، وقد شرحها ناظمها شرحًا واسعًا حافلًا، أسماه «معارج القبول» يُعدُّ موسوعةً لنصوص العقيدة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولا يكاد يوجد نظيرٌ لهذا الكتاب في استيعاب أدلة العقائد السلفية. وهذا أوان الشروع في المقصود.



قال الناظم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا (١) رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرًا مُعِينًا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هَدَانَا (٢) إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَأُجْتَبَانَا
أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ (٣) وَمِنْ مَسَاوِي عَمَلِي أَسْتَغْفِرُهُ
وَأَسْتَغِيثُهُ عَلَى نَيْلِ الرِّضَا (٤) وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِيمَا قَضَى
وَبَعْدُ إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ (٥) شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ
بِالْحَقِّ مَالُوهُ سِوَى الرَّحْمَنِ (٦) مَنْ جَلَّ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانٍ
وَأَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا (٧) مَنْ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى
رَسُولُهُ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ (٨) بِالنُّورِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَمَجَّادًا (٩) وَالْآلِ وَالصَّحْبِ دَوَامًا سَرْمَدًا
وَبَعْدُ هَذَا النِّظْمُ فِي الْأُصُولِ (١٠) لِمَنْ أَرَادَ مَنِهَجَ الرَّسُولِ
سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَا بُدَّ لِي (١١) مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ الْمُمْتَثِّلِ
فَقُلْتُ مَعَ عَجْزِي وَمَعَ إِشْفَاقِي (١٢) مُعْتَمِدًا عَلَى الْقَدِيرِ الْبَاقِي

قال الشاعر:

قوله: «أَبْدَأُ»: أي في شأني كله ومنه هذا النظم.

قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا»: أي طالبًا منه العون.

قوله: «رَاضٍ بِهِ»: أي وأنا راضٍ بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «مُدَبِّرًا مُعِينًا»: حال كونه مدبرًا، يدبر جميع شؤني، ومعينا لي على جميع أموري.

ثم ثنى بالحمد فقال: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» الحمد هو: الإخبار عن محاسن المحمود مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه. قاله ابن القيم في «بدائع الفوائد».

قوله: «كَمَا هَدَانَا إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ»: الحمد لله على هدايته لنا إلى سبيل الحق، وهو دين الإسلام، هداية دلالة وإرشاد بأن عَرَفْنَا طريق الحق بكتبه ورسله، وهداية توفيق بأن وفقنا لسلوك سبيل الحق، وجعلنا من أهل الإسلام.

قوله: «وَأَجْتَبَانَا»: أي اصطفانا واختارنا لكون من أهل الإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثم بعد أن حمد الله بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، أتبع ذلك بحمده بالجملة الفعلية التي تفيد التجدد الاستمراري، فقال: «أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ»: أحمده على فضائله وفواضله، «سُبْحَانَهُ»: تنزيها له عما لا يليق، «وَأَشْكُرُهُ»: على ما أنعم.

قوله: «وَمِنْ مَسَاوِي عَمَلِي أَسْتَغْفِرُهُ»: السين للطلب، أي أطلب منه مغفرة ما عملت من سوء.

قوله: «وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى نَيْلِ الرِّضَا»: أطلب منه العون بأن ييسر لي الأعمال التي أنال بها رضاه.

قوله: «وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِيمَا قَضَى»: أطلب منه أن يُمدّني بلطفه فيما قضاه، بأن يرزقني الرضا بالقضاء كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(١).

قوله: «وَبَعْدُ»: بعد ما سبق.

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١٣٠٤).

قوله: «إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ»: أي أشهد قاطعاً جازماً من غير شك ولا تردد.

قوله: «شَهَادَةُ الْإِخْلَاصِ»: أي شهادة خالصة.

قوله: «أَنْ لَا يُعْبَدُ»: أي أنه لا يُعبد، يجوز أن تُسكن الدال فتقول:

وَبَعْدُ إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ

ويجوز أن تضممها فتقول:

وَبَعْدُ إِنِّي بِالْيَقِينِ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدُ

لأن «أَنْ»: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي أنه و«لَا يُعْبَدُ»: هو خبر أن

المخففة من الثقيلة.

قوله: «بِالْحَقِّ مَأْلُوءٌ»: أي معبود بحق؛ لأن المعبودات بالباطل كثيرة، لكن لا معبود حق

إلا الله، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

قوله: «سِوَى الرَّحْمَنِ»: وهذه هي شهادة أن لا إله إلا الله، وسيأتي -إن شاء الله- بسط

القول في تفسيرها.

ولما لم يمكن النظم الإتيان بلفظها وهو «أشهد أن لا إله إلا الله» نظمها بمعناها، ومن

ينظم يحكمه الوزن والقافية، ويحوجه ذلك إلى التقديم في الكلام والتأخير، وإبدال الكلمة

بمرادفها بحسب ما يسمح به النظم.

وقد اعتذر بذلك ابن المرحّل في نظمه «فصيح ثعلب» فقال في ديباجة نظمه:

مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْدُو ذَاكَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ إِلَّا لَا ضَرَارَ عَنَّا

فَالْمَرْءُ قَدْ تَنَابُؤُهُ الضَّرُورَةُ فَتُضْحِبُ النَّفْسُ بِهَا مَقْهُورَةً

ومعنى «تُضْحِبُ» تنقأ، ومعرفة هذا من طالب العلم نافع اه في تعامله مع المنظومات.

قوله: «مَنْ جَلَّ»: تنزّه.

قوله: «عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانٍ»: بل له الكمال المُطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

قوله: «وَأَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا»: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «مَنْ جَاءَنَا»: أي الذي جاءنا، «بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى رَسُولُهُ»: هذا خبر «أن».

قوله: «إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ»: كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وفي «الصحيحين»: «وَكَانَ الرَّسُولُ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

قوله: «بِالنُّورِ»: وهو القرآن، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

قوله: «وَالْهُدَى»: أي الإرشاد والدلالة إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قوله: «وَدِينِ الْحَقِّ»: وهو الإسلام الذي لا يقبل سبحانه دينًا سواه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

قوله: «صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَمَجَّدَا وَالْآلِ وَالصَّحْبِ دَوَامًا سَرْمَدًا»: «صَلَاةُ اللَّهِ تَنَاوُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ». قاله أبو العالية، وعلقه عنه البخاري في «صحيحه»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٣٥)، ومسلم في «الصحيح» (٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» معلقا (٦/ ١٢٠).

قوله: «وَمَجْدًا»: أي شَرَّفَ وعَظَّمَ.

قوله: «وَالْآلِ»: آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقام الدعاء أتباعه على دينه إلى يوم القيامة، وفي مقام الزكاة: المؤمنون من بني هاشم، ويدخل فيهم أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «وَالصَّحْبِ»: الصحابي: من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمناً به، ومات على ذلك.

قوله: «دَوَامًا سَرْمَدًا»: السرمد: الدائم، فهي صلاة دائمة لا تنقطع.

قوله: «وَبَعْدُ»: أي بعد ما تقدّم من الشهادتين، والصلاة والسلام على نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

قوله: «هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ»: أي في أصول الدين، والمقصود: علم الاعتقاد.

قوله: «لِمَنْ أَرَادَ مَنَهِجَ الرَّسُولِ»: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، وما أجمل ما قال ابن أبي العز في مقدمة «شرح الطحاوية» قال: «وكيف يُرام الوصول، إلى علم الأصول، بغير اتباع ما جاء به الرسول؟!»^(١).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». نقله عنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة».

وعلاوة إرادة الله بعبده الخير: أن يوفقه لاتباع منهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسلوك سبيل السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فمن رغب عن سلوك سبيلهم إلى ما عليه أصحاب الكلام؛ فقد خرج من اجتماع إلى تشتت، ومن نظام إلى تفرق، ومن أنس إلى وحشة، وكيف لا يكون الفرق كبيراً، والبون شاسعاً بين عقيدة نزل بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَام من الله سبحانه وتعالى، إلى الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين عقائد

(١) «شرح الطحاوية» (ص: ٧٦).

مُضْطَرِبَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، خَرَجَ أَصْحَابُهَا الْمُبْتَدِعُونَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَخَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.
 قوله: «سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَا بُدَّ لِي مِنْ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ الْمُؤْتَمِّلِ»: ذكر الشيخ أحمد بن الشيخ
 حافظ الحكمي في ترجمته لوالده: أن شيخه عبدالله القرعاوي طلب منه —وعُمِّرَ الشيخ
 حافظ آنذاك تسع عشرة سنة— أن ينظم في التوحيد، فكانت هذه المنظومة.
 قوله: «فَقُلْتُ مَعَ عَجْزِي»: أي عدم قدرتي.

قوله: «وَمَعَ إِشْفَاقِي»: قال الشيخ حافظ في شرحه: «خوفي من الغلط في هذا الباب الذي
 المسألة منه أكبر من الدنيا وما فيها، وذلك لقصر باعي، وقلة اطلاعي». وهذا من تواضعه
 رَحِمَهُ اللَّهُ.

والذي قوَّى عزمه على ذلك هو كونه «مُعْتَمِدًا»: على الله سبحانه وتعالى، «الْقَدِيرُ»:
 الذي لا يعجزه شيء، «الْبَاقِي»: الذي كل شيء هالكٌ إلا وجهه.



قال الناظم:

مُقَدِّمَةٌ

تُعَرِّفُ الْعَبْدَ بِمَا خُلِقَ لَهُ، وَبِأَوَّلِ مَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ،
وَبِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ الْمِيثَاقَ فِي ظَهْرِ أَبِيهِ آدَمَ، وَبِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ
أَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا (١٣) لَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا
بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ (١٤) وَبِاللَّهِ يَفْضَلُ رَدُّهُ
أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ ظَهْرِ (١٥) آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ كَالْمُذَرِّ
وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ (١٦) لَا رَبَّ مَعْبُودٍ بِحَقِّ غَيْرِهِ
وَبَعْدَ هَذَا رُسُلُهُ قَدْ أَرْسَلَا (١٧) لَهُمْ وَبِالْحَقِّ الْكِتَابَ أَنْزَلَا
لِكَيِّ بِذَا الْعَهْدِ يُذَكِّرُوهُمْ (١٨) وَيُنْذِرُوهُمْ وَيُبَشِّرُوهُمْ
كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ لِلنَّاسِ بَلْ (١٩) اللَّهُ أَعْلَى حُجَّةٍ عَزَّ وَجَلَّ
فَمَنْ يُصَدِّقْهُمْ بِلَا شِقَاقٍ (٢٠) فَقَدْ وَفَى بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ
وَذَاكَ نَجَاحٌ مِنَ عَذَابِ النَّارِ (٢١) وَذَلِكَ الْوَارِثُ عُقْبَى الدَّارِ
وَمَنْ بِهِمْ وَبِالْكِتَابِ كَذَّبَا (٢٢) وَلَا زَمَ الْإِغْرَاضَ عَنْهُ وَالْإِبَا
فَذَاكَ نَاقِضٌ كِلَا الْعَهْدَيْنِ (٢٣) مُسْتَوْجِبٌ لِلْخِزْيِ فِي الدَّارَيْنِ



قال الشارح:

قوله: «أَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا»: أي بلا أمرٍ ولا نهيٍ في الدنيا، ولا مجازاةٍ في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]،

فالهملُ والعبثُ والسُدَى كله بمعنى واحد.

قوله: «**بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ**»: ومع عبادتهم إياه، «**بِالْإِلَهِيَّةِ يُفَرِّدُوهُ**» فلا يشركون بعبادته أحداً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومعنى «يعبدون»: يوحّدون، والعبادةُ حيث أطلقت في الشرع فمعناها: التوحيد؛ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] أي وحدوه.

ذكر البغوي في «تفسيره» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد»^(١).

قوله: «**أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَى**»: وذلك بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام.

قوله: «**مِنْ ظَهَرَ آدَمَ ذُرِّيَّتُهُ**»: أخرج كل من سيوجد منهم إلى يوم القيامة.

قوله: «**كَالذَّرِّ**»: أي كهيئة الذرّ.

قوله: «**وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ**»: والعهد هو «**أَنَّهُ لَا رَبَّ مَعْبُودَ بِحَقِّ غَيْرِهِ**»: أخذ العهد عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فأقروا بذلك وشهدوا به على أنفسهم، وقد دلّ على هذا العهد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [١٧٣] وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

ويدل له ما في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا،

(١) أخرجه البغوي في «التفسير» (١ / ٧١).

فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي» (١).

وفي «مسند الإمام أحمد» عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بْنِ عُمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا فَتَشَرَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبْلًا قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]» (٢).

ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما، لكن له حكم الرفع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي، وقول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للرأي والاجتهاد فيها ولا تعرف إلا عن طريق الوحي؛ له حكم الرفع، كما قال العراقي في «ألفية الحديث»: وَمَا أَتَى عَنْ صَاحِبٍ بِحَيْثُ لَا يُقَالُ رَأْيًا حُكْمُهُ الرَّفْعُ عَلَى مَا قَالَ فِي الْمَحْضُولِ نَحْوُ (مَنْ أَتَى) فَالْحَاكِمُ الرَّفْعُ لِهَذَا أَثْبَتَا والأحاديث في استخراج ذرية آدم من ظهره كثيرة، حتى عدّها جماعة من أهل العلم من المتواتر، ك: إسحاق بن راهويه، والثعالبي، وابن عطية، وابن النحاس في آخرين.

والمواثيق ثلاثة:

الميثاق الأول: هو هذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه السلام ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَى ﴿[الأعراف: ١٧٢]؛ وهذا الميثاق لا يذكره منا أحد، كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لكن بقي أثره وهو:

الميثاق الثاني: الفطرة؛ فالله سبحانه وتعالى فطر الخلق شاهدين بما أخذه عليهم في

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٥٧)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٠٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤٥٥).

الميثاق الأول؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(١). وهو عند أبي داود، وأخرج عَقِبَهُ عن الحجاج بن المنهال أنه قال: سمعت حماد بن سلمة يُفَسِّرُ حديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» قال: هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]^(٢).

الميثاق الثالث: هو ما جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب تجديداً للميثاق الأول، وتذكيراً به، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، فأرسال الرسل هو الذي تقوم به الحُجَّة على الناس، وينقطع به عُذرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

أما الآيات الكونية والفطرة فلا تكفي لقيام الحُجَّة، بل إرسال الرسل هو الذي تقوم به الحُجَّة كما جاء التصريح بذلك في آيات كثيرة، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة في الآفاق وفي الأنفس، أو بخلقهم على الفطرة؛ لذلك يُسأل أهل النار قبل دخولها: هل جاءهم من نذير، كما في سورة «الزمر» في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]، وفي سورة «الملك» في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٣٥٨)، ومسلم في «الصحيح» (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٧١٦).

قوله: «وَبَعْدَ هَذَا رُسُلُهُ قَدْ أُرْسِلَا»: بعد هذا الميثاق الذي أخذه عليهم في ظهر أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم فطرهم على الإقرار به، وخلقهم شاهدين به «رُسُلُهُ قَدْ أُرْسِلَا لَهُمْ»: أرسل الله رسله إلى الخلق.

قوله: «وَبِالْحَقِّ الْكِتَابَ أَنْزَلَا»: أنزلت الكتب على الرسل بدين الحق.
قوله: «لِكَيْ بِذَا الْعَهْدِ»: الميثاق الأول «يُذَكِّرُوهُمْ»: إقامة للحجة عليهم، «وَيُنذِرُوهُمْ»: عقاب الله إن عصوه ونقضوا عهده، «وَيُبَشِّرُوهُمْ»: بمغفرته ورضوانه إن أطاعوه ووفوا بعهده.
قوله: «كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ»: حجة بالرفع، «يكون» هنا تامة، فقوله: «حُجَّةٌ» فاعل «يكون» أي حتى لا توجد حجة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي حتى لا توجد فتنة.

قوله: «كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ لِلنَّاسِ»: يعتذرون بها فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قوله: «بَلْ لَّهِ أَعْلَى حُجَّةٍ عَزَّ وَجَلَّ»: كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أي التي تنقطع عندها معاذيركم، والتي لم تبق لأحد عذراً.
قوله: «فَمَنْ يُصَدِّقُهُمْ»: أي الرسل، «بِلا شِقَاقٍ»: بلا تكذيب ولا مخالفة، «فَقَدْ وَفَى بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ»: العهد الأول.

قوله: «وَذَاكَ نَاجٍ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَذَلِكَ الْوَارِثُ عُقْبَى الدَّارِ»: وهي الجنة.
قوله: «وَمَنْ بِهِمْ»: أي بالرسل.
قوله: «وَبِالْكِتَابِ»: أي بالكتب.
قوله: «كَذَّبَا وَلَا رَمَ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ»: عما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.
قوله: «وَالْإِبَا»: الامتناع، هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠].
قوله: «فَذَاكَ»: المكذب بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله.

قوله: «نَاقِضٌ كِلَا الْعَهْدَيْنِ»: الميثاق الذي أخذه الله عليه وفطره على الإقرار به، وما جاءت به الرسل.

قوله: «مُسْتَوْجِبٌ لِلْخِزْيِ فِي الدَّارَيْنِ»: في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].



قال الناظم:

«فَصْلٌ: فِي كَوْنِ التَّوْحِيدِ يَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ؛ وَبَيَانِ النَّوعِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِثْبَاتِ».

- أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ (٢٤) مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ
 إِذْ هُوَ مِنْ كُلِّ الْأَوَامِرِ أَعْظَمُ (٢٥) وَهُوَ نَوْعَانِ أَيَّامَنْ يَفْهَمُ
 إِثْبَاتُ ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا (٢٦) أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى صِفَاتِهِ الْعُلَا
 وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْجَلِيلُ الْأَكْبَرُ (٢٧) الْخَالِقُ الْبَارِيُّ وَالْمُصَوِّرُ
 بَارِي الْبَرَائِا مُنْشِئُ الْخَلَائِقِ (٢٨) مُبْدِعُهُمْ بِلَا مِثَالٍ سَابِقِ
 الْأَوَّلِ الْمُبْدِي بِلَا ابْتِدَاءٍ (٢٩) وَالْآخِرُ الْبَاقِي بِلَا انْتِهَاءٍ
 الْأَحَدُ الْفَرْدُ الْقَدِيرُ الْأَزَلِيُّ (٣٠) الصَّمَدُ الْبَرُّ الْمُهَيَّمُ الْعَلِيُّ
 عَلُوُّ قَهْرٍ وَعُلُوُّ الشَّانِ (٣١) جَلَّ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَعْوَانِ
 كَذَا لَهُ الْعُلُوُّ وَالْفَوْقِيَّةُ (٣٢) عَلَى عِبَادِهِ بِلَا كَيْفِيَّةٍ
 وَمَعَ ذَا مُطْلَعٍ إِلَيْهِمْ (٣٣) بَعْلَمِهِ مُهَيَّمٌ عَلَى إِلَيْهِمْ
 وَذِكْرُهُ لِلْقُرْبِ وَالْمَعِيَّةِ (٣٤) لَمْ يَنْفِ لِلْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ
 فَإِنَّهُ الْعَلِيُّ فِي دُنُوِّهِ (٣٥) وَهُوَ الْقَرِيبُ جَلَّ فِي عُلُوِّهِ

قال الشارح:

قوله: «فَصْلٌ: فِي كَوْنِ التَّوْحِيدِ يَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ؛ وَبَيَانِ النَّوعِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِثْبَاتِ»:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ

أول واجبٍ فرضه الله على العباد: هو توحيد الله، هذا الذي عليه أهل السنة، خلافاً لأهل الكلام الذين قالوا أول واجبٍ هو النظر، أو القصد إلى النظر، أو الشك، والسنة والإجماع على أن أول واجبٍ على العباد: هو توحيد الله.

ومن أدلة ذلك: حديث الصحيحين: أن النبي ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» ^(١)، وَوَرَدَ بلفظ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ» ^(٢)، وَوَرَدَ بلفظ: «فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ^(٣)، وكلها في الصحيح.

قوله: «إِذْ»: إذ هنا حرف تعليل لبيان علة كون أول واجب على العباد: هو معرفة الله بالتوحيد.

قوله: «هُوَ»: أي التوحيد.

قوله: «مِنْ كُلِّ الْأَوَامِرِ أَعْظَمُ»: الأوامر: بسكون الراء ليستقيم وزن البيت، فالتوحيد هو أعظم ما أمر الله به، ومن أجله أرسلت الرُّسل، وأنزلت الكتب، وضدّه -وهو الشرك- أعظم المنهيات، وقد سُئِلَ ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» ^(٤)، والدليل على كون التوحيد أعظم المأمورات، وكون الشرك أعظم المنهيات: آية الحقوق العشرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، الآية، والشاهد: أنه ابتداء هذه الحقوق المُعظَّمة بأعظم المأمورات: وهو التوحيد، وأعظم المنهيات: وهو الشرك.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٧٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٤٥٨)، ومسلم في «الصحيح» (١٩).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٩).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٤٧٧)، ومسلم في «الصحيح» (٨٦).

قوله: «وَهُوَ»: بضمّ الهاء، أي التوحيد الذي هو أعظم الأوامر.

قوله: «نَوْعَانِ»: التوحيد في القسمة المشهورة ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الألوهية.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الربوبية: هو إفراد الله بأفعاله؛ من خلق، ورزق، وملك، وتدبير، ونحو ذلك من أفعاله التي هو مختصّ بها لا شريك له فيها.

وتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة؛ أي بأفعال العباد.

والعبادة: منها ما يكون بالقلب؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، ومنها ما يكون باللسان؛ كالدعاء، والاستغاثة، ومنها ما يكون بالجوارح؛ كالذبح، والركوع والسجود، وكلها يجب على العباد أن يخصّوا الله تعالى بها، وألا يجعلوا له فيها شريكاً، فإذا توجّه العبد بهذه العبادة لله لا لغيره؛ كان موحدًا إيّاه بتوحيد الألوهية.

والقسم الثالث توحيد الأسماء والصفات: بإفراد الله تعالى بما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

والواجب في هذا الباب: إثبات ما أثبتته الله لنفسه، وأثبتته له رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ودليل هذا التقسيم: الاستقراء التّام لأدلة الكتاب والسنة، والأدلة في ذلك على نوعين:

النوع الأول: أدلة في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة على حدة؛ فتوحيد الربوبية هو في

مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الرَّحْزُف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ

مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

أَلَمِيتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴿[يونس: ٣١]، وتوحيد الألوهية هو في مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وتوحيد الأسماء والصفات: هو في مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

النوع الثاني: أدلة تجمع هذه الأنواع في سياق واحد؛ كقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]: توحيد الربوبية، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]: توحيد الألوهية، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]: توحيد الأسماء والصفات.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين؛ فيجعل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات قسمًا واحدًا يُسمَّيه: توحيد المعرفة والإثبات، والتوحيد العلمي، ويسمِّي توحيد الألوهية: توحيد الطلب والقصد؛ والتوحيد العملي، وهو ما جرى عليه الناظم هنا، وكلام الناظم في هذا الفصل هو في التوحيد العلمي؛ توحيد المعرفة والإثبات.

قوله: «إِثْبَاتُ ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا»: أي إثبات وجوده سبحانه وتعالى.

قوله: «أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى صِفَاتِهِ الْعُلَا»: أي وإثبات أسمائه الحسنى، وإثبات صفاته العُلا، وما سيأتي في المنظومة من أبيات في هذا الفصل هي تفصيل لهذا البيت.

قوله: «وَأَنَّهُ الرَّبُّ»: أي وإثبات ربوبيته بأنه ربُّ كل شيء ومليكه.

ومعاني الرب في اللغة ترجع إلى ثلاثة معانٍ:

الأول: المالك؛ يُقال: ربُّ الدار: أي مالِكها.

الثاني: السيد المُطاع؛ قال تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]: أي يسقي

الثالث: المصلح للشيء القائم عليه؛ يُقال: ربَّ الرجلُ الشيءَ يُرَبُّهُ: إذا أصلحَهُ.

والله تعالى هو الربُّ بهذه المعاني كلها؛ فهو المالك لكل شيء، وهو السيد المطاع، وهو المصلح لأحوال خلقه.

قوله: «**الْجَلِيلُ**»: أي المتصف بجميع نعوت الجلال، وصفات الكمال، فهو أهل لأن يُجَلَّ سُبْحَانَهُ وتعالى، والجليل يُخْبِرُ به عن الله سبحانه وتعالى؛ قال الله تعالى: ﴿نَبِّزَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

قوله: «**الْأَكْبَرُ**»: من كل شيء؛ قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لعدي بن حاتم قبل أن يسلم: «مَا يُفْرِكُ أَنْ تَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللَّهِ؟». قَالَ: قُلْتُ: لَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا تَفِرُّ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَتَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ اللَّهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا - ثم أسلم عدي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** -» (١).

قوله: «**الْخَالِقُ الْبَارِيُّ وَالْمُصَوِّرُ**»: هذه الأسماء الثلاثة مُتَقَارِبَةٌ، وقد اقترنت في قوله تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، الخلق في اللغة: التقدير؛ كما قال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يقول: أَنْتَ إِذَا قَدَّرْتَ أَمْرًا أَمْضِيَّتُهُ وَغَيْرُكَ يُقَدِّرُ، ثُمَّ لَا يُمْضِي مَا قَدَّرَهُ، يَصِفُهُ بِأَنَّهُ مَاضِي

العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءً﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ أي تقدرون كذبًا.

قوله: «**الْبَارِيُّ**»: البرء؛ الإيجاد؛ أي إبراز هذا الذي قدَّره من العدم إلى الوجود.

قوله: «**وَالْمُصَوِّرُ**»: التَّصْوِيرُ: هو تشكيل الموجودات على الصورة المُقَدَّرَةِ.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٩٥٣).

وَيَتَّضِحُ الْمَعْنَى بِمِثَالٍ: لَوْ تَخَيَّلْتَ بِنَاءَ، الْمُهَنْدِسُ مَاذَا يَفْعَلُ أَوَّلًا؟ يُقَدَّرُ وَيَخْطُطُّ، هَذَا التَّقْدِيرُ: هُوَ الْخَلْقُ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنَ التَّخْطِيطِ يُكَلِّفُ الْعَمَالَ بِنَاءَ الْهَيْكَلِ وَالْأَسَاسَاتِ، فَتَخْرُجُ هَذِهِ الْعِمَارَةُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ؛ هَذَا الْبَرُّءُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَصْنَعُ الْبِنَاءَ وَيَصَوِّرُهُ بِالصُّورَةِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي يَخْتَلِفُ بِهَا، وَيَتَمَيَّزُ عَنْ بَاقِي الْأَبْنِيَةِ؛ هَذَا التَّصْوِيرُ، وَإِذَا نَظَرْتَ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصَوُّرِهِ الْكَائِنَاتِ يَنْطِقُ قَلْبُكَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

قوله: «**بَارِي الْبَرَايَا**»: أَيُ مَوْجِدٌ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.

قوله: «**مُنْشِئُ الْخَلَائِقِ**»: أَيُ مَنْشِئُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

قوله: «**مُبْدِئُهُمْ**»: أَيُ مَوْجِدُهُمْ مِنَ الْعَدَمِ.

قوله: «**بِلَا مِثَالٍ سَابِقٍ**»: قَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]: أَيُ مَوْجِدُهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَهَذَا الْبَيْتُ مُفَسَّرٌ لَمَّا قَبْلَهُ.

قوله: «**الْأَوَّلُ**»: الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ.

قوله: «**الْمُبْدِي**»: الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

قوله: «**بِلَا ابْتِدَاءٍ**»: لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ.

قوله: «**وَالْآخِرُ**»: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ.

قوله: «**الْبَاقِي**»: وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَإِنْ؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ﴾ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ

وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، وَالْبَاقِي مِمَّا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: «**بِلَا انْتِهَاءٍ**»: لَيْسَ لِآخِرِيَّتِهِ انْتِهَاءٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ

وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [الحديد: ٣].

وهذان الاسمان -الأول والآخر- أحسن من فسّرهما: أعلم الخلق بالله سبحانه وتعالى: رسول الله ﷺ؛ فقد كان يقول ضمن دعائه عند النوم -كما في «صحيح مسلم»- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - وذكر الدعاء وفيه -: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(١)، فهذا تفسير من النبي ﷺ لهذه الأسماء يدلُّ على أنَّه سبحانه وتعالى محيطٌ بالأشياء من كل وجه، فالأول والآخر بيان لإحاطته الزمانية، والظاهر والباطن بيانٌ لإحاطته المكانية، فاسمُ الأول يتضمن إثبات صفة الأولية، فالله تعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء، وفيه ردُّ على الفلاسفة الذين يقولون بقدَم العالم، واسم الآخر يتضمن صفة الآخرية، فهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

مسألة: ما جاء في أدلة الكتاب والسنة من بقاء الجنة والنار ودواميهما، ودوام أهلها فيهما، هل يُنافي كونه سبحانه الآخر الذي ليس بعده شيء؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأنَّهما باقيتان بإبقاء الله -سبحانه وتعالى- لهما، فبقاء الله -سبحانه وتعالى- لازم لذاته، بخلاف بقاء الجنة والنار ومن فيهما فإنه مكتسب، قد شاءه الله وأرادَه، ولو لم يشأه؛ لم يحصل ولم يقع، قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية»: «وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما؛ بل بإبقاء الله لهما».

واسم الظاهر يتضمن صفة الظهور، فهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والظهور: هو العلُو، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩]: أي لِيُعْلِيَهُ، وقال تعالى: ﴿فَمَا أَصْطَعُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]: أي أن يعْلوه، فهو سبحانه ليس فوقه شيء؛ أي أنَّه عالٍ على كل شيء.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٧١٣).

واسم الباطن يتضمن صفة البُطُون، فهو سبحانه ليس دونه شيء؛ أي أنه أقرب إلى كل شيء من كل شيء؛ بعلمه، وقدرته، وإحاطته، لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى.

وذكر معنى اسم الظاهر والباطن هنا هو من باب ضمّ النّظير إلى نظيره، وكذلك فعل الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه.

قوله: «الأَحَدُ»: أي المنفرد عن كل شريك ومماثل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

قوله: «الْفَرْدُ»: يخبر به عن الله سبحانه وتعالى، وهو بمعنى الأحد.

قوله: «الْقَدِيرُ»: الذي له القدرة التامة، لا يُعجزه شيء سبحانه وتعالى؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

قوله: «الْأَزَلِيُّ»: بذاته، وأسمائه، وصفاته، والأزلي يُخبر به عن الله سبحانه وتعالى، وليس من أسمائه، ومعنى الأزلي: الذي لم يزل كائناً، وهو معنى: اسم الله الأول، ويقابله في المعنى: الأبدى؛ وهو الذي لا يزال كائناً، وهو معنى اسم الله: الآخر.

قوله: «الصَّمَدُ»: الصَّمَدُ من صَمَدْتُ إليه: أي قصدته بحاجتي؛ ولذلك كانت العرب تسمي السيّد المطاع: صَمَدًا؛ لأنّ الناس يصمدون إليه، ويقصدونه بحوائجهم، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الصمد: «السيد الذي كمل سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والعليم الذي كمل في علمه»^(١)، وهكذا عدّد أسماء الله سبحانه وتعالى، فتعلم بهذا: أن معنى الصمد: الكامل في صفاته، الذي تصمّد إليه المخلوقات، وتفتقر إليه بحوائجها، فاسم الله الصمد يجمع الكمال، والصَّمَد -أيضا-: هو الباقي بعد خلقه، والصَّمَدُ -أيضا-: المصمّت الذي لا

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٧٣٦ / ٢٤).

جوف له، لذلك جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قالَا في معنى الصمد: «الذي لا جوف له» ^(١)؛ بمعنى: أنه لا يحتاج إلى شيء؛ لا يأكل، ولا يشرب، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ لذلك الملائكة تسمى صُمدًا؛ لأنَّهم لا يأكلون ولا يشربون، وهذا المعنى يدل على غنى الله سبحانه وتعالى وكمالهِ جَلَّ جلاله.

قوله: «الْبَرُّ»: أي كثير الإحسان، والبرُّ: كلمة جامعة لخصال الخير. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنا وَوَقَّنا عَذابَ السَّوْمِ﴾ ^(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٧ - ٢٨].

قوله: «الْمُهَيْمِنُ»: هو الرقيب على خلقه، الحافظ لأعمالهم، الذي لا يغيب عنه شيء من أحوالهم. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قوله: «الْعَلِيَّ»: فكل معاني العلو ثابتة له، قال ابن القيم في «النونية»: وَلَهُ الْعُلُوُّ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعُهَا ذَاتًا وَقَهْرًا مَعَ عُلُوِّ الشَّانِ
قوله: «عُلُوُّ قَهْرٍ»: فلا مغالب له ولا منازع، بل كل شيء تحت سلطان قهره.
قوله: «وَعُلُوُّ الشَّانِ»: فتعالى عن جميع النقائص والعيوب.
قوله: «جَلَّ»: أي تنزه.

قوله: «عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَعْوَانِ»: وهذان المعنيان: علُوُّ القهر وعلُوُّ الشَّانِ؛ لم يخالف فيهما أحدٌ ممَّن يدَّعي الإسلام، وإنَّما ضَلَّ من ضَلَّ ودخل عليه الخطأ في علُوِّ الذات الذي ذكره في قوله:

كَذَا لَهُ الْعُلُوُّ وَالْفَوْقِيَّةُ عَلَى عِبَادِهِ بِلاَ كَيْفِيَّةِ

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧/١٤٣).

وأدلة إثبات علو الله تعالى أكثر من ألف دليل.

كل دليل فيه تسمية الله تعالى بِالْعَلِيِّ وبالأعلى فهو دليل على إثبات علو الله سبحانه وتعالى. ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وكل دليل فيه أَنَّ القرآن منزل من الله تعالى؛ فهو دليل على إثبات علو الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ التنزيل يكون من أعلى. ومنه قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزُّمَر: ١].

وكل دليل فيه ذكر صعود الأشياء إلى الله تعالى، وعروجها إليه؛ فهو دليل على إثبات علو الله سبحانه وتعالى. ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

كذلك أدلة الاستواء، وأدلة الفوقية، فالأدلة كثيرة جداً، وقد ذكر ابن القيم في «إعلام الموقعين» من أنواع الأدلة: ثمانية عشر نوعاً تحت كل نوع منها تجد في الكتاب والسنة عشرات الأدلة، وقال في «النونية»:

يَا قَوْمَنَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا	أَلْفَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَانِ
عَقْلًا وَنَقْلًا مَعَ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الـ	أُولَى وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ
كُلُّ يُدُلُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ	فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ
أَتَرُونَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ	لَجَعَلْنَا التَّعْطِيلَ وَالْهَمْدَ يَانِ

وقد حصلت قصة للهَمْدَانِي مع أبي المعالي الجويني، وكان الجويني ينكر علو الله سبحانه وتعالى، فقال له الهَمْدَانِي: ما ضرورة إيجادها أحدنا في نفسه؛ فما قال عارف قط: يا الله إِلَّا تَوَجَّهَ بقلبه إلى السماء؟ فسكت أبو المعالي وقال: حيرني الهَمْدَانِي، حيرني الهَمْدَانِي.

وحصلت قصةً قريبةً من هذه لشيخ الإسلام ابن تيمية مع أحد النفاة؛ قال شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل»: «ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم، وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع طرفه ورأسه إلى السماء، وقال: يا الله، فقلت له: أنت محقق، لمن ترفع طرفك ورأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول: فتاب من ذلك، ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرتهم»، فالإقرار بعُلُوِّ الله سبحانه وتعالى فطرة، لا يستطيع أحد أن ينكرها، وقد تكلم ابن القيم في كتابه: «اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية» عن هذا، وذكر في آخره شيئاً من خبر إقرار الحيوانات بعُلُوِّ الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي ذكره الناظم في قوله:

كَذَا لَهُ الْعُلُوُّ وَالْفَوْقِيَّةُ عَلَى عِبَادِهِ بِلاَ كَيْفِيَّةِ

قوله: «بِلاَ كَيْفِيَّةٍ»: هذا يُقال في جميع الصفات؛ في صفة العُلُوِّ، وفي غيرها، فإثبات أهل السنة والجماعة لصفات الله تعالى هو إثبات وجود لا إثبات تكييف؛ لذا ترى في كلامهم: «بلا كيف»؛ المعنى: أننا نثبت الصفة، مع نفي علمنا بالكيفية؛ أي بلا كَيْفِيَّةٍ نعلمها، وليس نفياً لوجود الكيفية؛ لذا قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، ما قال: والكيف معدوم؛ بل قال: «والكيف مجهول»، فنثبت الصفات، ونفي علمنا بالكيفية، لأننا أخبرنا بالصفات، ولم نُخبر بكيفيةها.

قوله: «وَمَعَ ذَا»: أي مع اتصافه بالعلو.

قوله: «مُطَّلَعٌ إِلَيْهِمْ بَعْلَمِهِ»: كما جمع الله تعالى بين عُلُوِّه واستوائه على عرشه، وبين علمه بخلقه في آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، وهذا فيه إثبات الاستواء والعُلُوِّ، وقرن إلى ذلك: العلم،

وَأَنَّهُ مَعَ خَلْقِهِ بَعْلَمَهُ، فَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

قوله: «**مُهِمِّنٌ عَلَيْهِمْ**»: أي رقيب عليهم.

قوله: «**وَذِكْرُهُ**»: سبحانه وتعالى.

قوله: «**لِلْقُرْبِ**»: في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في حديث الصحيحين: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١).

قوله: «**وَالْمَعِيَّةُ**»: في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

قوله: «**لَمْ يَنْفِ لِلْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ**»: أي أَنَّ ما ذكر في الكتاب والسنة من قُرْبِهِ سبحانه وتعالى ومعِيَّتِهِ لا ينافي ما ذكر فيهما من عُلُوِّهِ وفَوْقِيَّتِهِ، فلا إشكال في الجمع بين عُلُوِّهِ وقُرْبِهِ؛ لَأَنَّهُ سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

قوله: «**فَأَنَّهُ الْعَلِيُّ فِي دُنُوِّهِ وَهُوَ الْقَرِيبُ جَلٌّ فِي عُلُوِّهِ**»: ومن استشكل شيئاً من ذلك؛ فليَعُدْ بقلبه إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فَإِنَّهُ يزول عنه بذلك الإشكال، فالله سبحانه وتعالى كما أَنَّهُ ليس كمثله شيء في ذاته؛ فكذلك ليس كمثله شيء في صفاته؛ فالقول في الصفات كالقول في الذات.



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٩٩٢)، ومسلم في «الصحيح» (٢٧٠٤).

قال الناظم:

حَيٍّ وَقَيُّومٌ فَلَا يَنَامُ (٣٦) وَجَلَّ أَنْ يُشَبِّهَهُ الْأَنَامُ
لَا تَبْلُغُ الْأَوْهَامُ كُنْهَ ذَاتِهِ (٣٧) وَلَا يُكَيِّفُ الْحِجَابَ صِفَاتِهِ

قال الشارح:

قوله: «حَيٍّ»: الحيُّ: الذي له الحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم، ولا يلحقها فناء، ولا يعترئها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

قوله: «وَقَيُّومٌ»: القيُّوم: الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وقام به كل شيء، فكل ما سواه مفتقرٌ إليه، فهو سبحانه القائم على شؤون خلقه؛ على خلقهم، ورزقهم، وتدبير أمورهم، كما قال تعالى: ﴿أَقَمْنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقد قرن الله تعالى بين هذين الاسمين في قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد علّمنا نبينا ﷺ أن نقول في كل صباح ومساء: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(١).

قوله: «فَلَا يَنَامُ»: النَّومُ نقصٌ في الحياة والقيومية؛ لذا أردف الله تعالى هذين الاسمين بنفي السّنة والنّوم؛ فقال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والسّنة: النّعاس.

قوله: «وَجَلَّ أَنْ يُشَبِّهَهُ الْأَنَامُ»: تنزّه وتقدّس عن أن يشبهه شيءٌ من خلقه، قال تعالى:

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٣٠)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٤٤٩).

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهذه الآية هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ردُّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ردُّ على المُعطلة.

ومنهج أهل السنة والجماعة قائم في هذا الباب على أصليْن:

الأول: إثبات بلا تمثيل.

الآخر: تنزيه بلا تعطيل.

وقد ضلَّ في هذا الباب طائفتان:

الأولى: الممثلة.

الآخرة: المُعطلة.

فأهل السنة أخذوا بالحسنيين: الإثبات والتَّزْيِيهِ.

وسلموا من الإساءتين: التمثيل والتَّعْطِيل.

قوله: «**لَا تَبْلُغُ الْأَوْهَامُ كُنْهَ ذَاتِهِ**»: لا تبلغ أوهام الخلق حقيقة ذاته سبحانه وتعالى، قال

تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قوله: «**وَلَا يُكَيِّفُ الْحِجَابَ صِفَاتِهِ**»: لا يُكَيِّفُ العقل صفات الله سبحانه وتعالى.

وقد حصلت قصةٌ لفتني ابتلي بالتَّكْيِيف مع الإمام عبدالرحمن بن مهدي، أخرجها اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، حاصلها: أنَّ عبدالرحمن بن مهدي بلغه عن غلامٍ أنه يتكلم في كيفية صفات الله تعالى، فأخبر الغلام بما بلغه من أمره، فأقرَّ الغلام وجعل يتكلم في كيفية صفات الله تعالى، فقال عبدالرحمن بن مهدي: رويدك يا بني حتى نتكلم أول شيء في المخلوق، فإذا عجزنا عن المخلوقات فنحن عن الخالق أعجز وأعجز، ٣٠٠. صِفْ لي خلقاً من خلق الله له ست مئة ناح، فبُهِتَ الغلام وجعل ينظر إليه لا

يَحِيرُ جوابًا، فقال عبدالرحمن بن مهدي: يا بُنَيَّ فَإِنِّي أَهَوُّ عَلَيْكَ الْمَسْأَلَةَ، وَأَضَعُ عَنْكَ خَمْسَ مِئَةِ وَهَـ خَلَقًا بِثَلَاثَةِ أَجْنَحَةٍ، رَكَّبَ الْجَنَاحَ الثَّالِثَ مِنْهُ مَوْضِعًا غَيْرَ الْمَوْضِعَيْنِ الَّتِي رَكَّبَهُمَا اللَّهُ حَتَّى أَعْلَمَ، فَبُهِتَ الْغَلَامُ، وَقَالَ لِابْنِ مَهْدِي: يَا أَبَا سَعِيدٍ نَحْنُ قَدْ عَجَزْنَا عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ، وَنَحْنُ عَنْ صِفَةِ الْخَالِقِ أَعْجَزُ وَأَعْجَزُ، فَأُشْهِدُكَ أَنِّي رَجَعْتُ عَنْ ذَلِكَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَرَجَعَ الْغَلَامُ عَمَّا كَانَ ابْتِلَايَ بِهِ مِنَ التَّكْيِيفِ.



❏ قَالَ النَّازِمُ:

بَاقٍ فَلَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ (٣٨) وَلَا يَكُونُ غَيْرُ مَا يُرِيدُ
مُنْفَرِدٌ بِـالْخَلْقِ وَالْإِرَادَةِ (٣٩) وَحَاسِمٌ جَلَّ بِمَا أَرَادَهُ
فَمَنْ يَشَاءُ وَفَقَّهُ بِفَضْلِهِ (٤٠) وَمَنْ يَشَاءُ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ
فَمِنْهُمْ الشَّقِيُّ وَالسَّعِيدُ (٤١) وَذَا مُقَرَّبٌ وَذَا طَرِيدُ
لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ قَضَاهَا (٤٢) يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقْتِضَاهَا



❏ قَالَ الشَّارِعُ:

قوله: «**بَاقٍ**»: الباقي ممَّا يُخْبَرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مسألة: ما الاسم الذي يؤدي هذا المعنى؛ أن الله **عَزَّجَلَّ** هو الباقي بعد خلقه ليس بعده

شيء؟

الجواب: الآخر.

قوله: «**فَلَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ**»: بل هو المُفْنِي المَبِيدُ، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُ ﴿[القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ
وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦-٢٧].

قوله: «وَلَا يَكُونُ غَيْرُ مَا يُرِيدُ»: يكون هنا: تامة، ف«غيرُ»: هو الفاعل.

الإرادة نوعان:

إِلَهِيَّةٌ: كونية.

وَالْإِنْسَانِيَّةُ: شرعية.

فالإرادة الكونية: هي التي لا بدَّ أن تقع، وقد تكون فيما يحبُّه الله، وقد تكون فيما لا
يحبُّه الله، فكل شيء في الكون هو مراد الله تعالى بالإرادة الكونية، ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ
يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴿[الأنعام: ١٢٥]، وهذه الإرادة الكونية مرادفة للمشئة.

والإرادة الشرعية: وهي لا تكون إلا فيما يحبُّه الله تعالى، وقد تقع وقد لا تقع، ومن
الإرادة الشرعية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ ﴿[البقرة: ١٨٥]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴿[النساء: ٢٧]، وهي مرادفة للمحبة، فالإرادة الكونية مرادفة للمشئة،
والشرعية مرادفة للمحبة.

مسألة: في قول الناظم هنا: «وَلَا يَكُونُ غَيْرُ مَا يُرِيدُ» ما نوع الإرادة؟

الجواب: كونية. والمعنى: لا يكون شيء في الكون إلا عن إرادته الكونية ومشئته
سبحانه وتعالى، فما من حركة ولا سكون إلا بإرادته الكونية ومشئته سبحانه وتعالى، ولو
شاء عَدَمَ وقوعها لم تقع.

وهاتان الإرادتان قد تجتمعان، وقد ترتفعان، وقد توجد إحداهما دون الأخرى،
فالقسمة رباعية، أذكر لكم أربعة أمثلة، وتبينون -إن شاء الله- ما نوع الإرادة في كل مثال.

سؤال الشّيخ: إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذا مرادٌ لله، ما نوع الإرادة؟

جواب الطالب: كونيّة شرعيّة.

سؤال الشّيخ: لماذا كونيّة؟

جواب الطالب: لأنّها وقعت.

سؤال الشّيخ: ولماذا شرعية؟

جواب الطالب: لأن الله عَزَّوَجَلَّ أحبّها.

سؤال الشّيخ: إيمان أبي جهل؟

جواب الطالب: شرعية فقط.

جواب الشّيخ: أحسنت هو مرادٌ شرعاً لا كوناً.

سؤال الشّيخ: كفر أبي جهل؟

جواب الطالب: إرادة كونيّة.

جواب الشّيخ: أحسنت؛ هذا مراد الله كوناً لا شرعاً.

سؤال الشّيخ: كفر رجل مات على الإسلام؟

الجواب: ليس مراداً لله كوناً ولا شرعاً.

قوله: «وَلَا يَكُونُ غَيْرُ مَا يُرِيدُ»: أي غير ما يشاء؛ فالإرادة هنا كونية.

قوله: «مُنْفَرِدٌ»: سبحانه وتعالى.

قوله: «بِالْخَلْقِ»: فالله سبحانه وتعالى هو الخالق، لا شريك له في الخلق، وما من

مَخْلُوقٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خالق غيره، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ

خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

قوله: «وَالْإِرَادَةُ»: أي منفرد بالإرادة كذلك، فلا إرادة لأحدٍ إلا بعد إرادته سبحانه وتعالى ومشيتته؛ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

قوله: «وَحَاكِمٌ جَلٌّ بِمَا أَرَادَهُ»: فلا مكره له، ولا راداً لحكمه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

قوله: «فَمَنْ يَشَاءُ وَفَقَّهُ بِفَضْلِهِ وَمَنْ يَشَاءُ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ»: كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، فالله سبحانه وتعالى هو المتصرف في هذا الكون، لا ندَّ له، ولا شريك، وله في خلقه المشيئة النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهدايته لمن اهتدى من خلقه هو محض فضله سبحانه وتعالى، كما قال الناظم:

فَمَنْ يَشَاءُ وَفَقَّهُ بِفَضْلِهِ

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴿[الحجرات: ٧-٨]﴾، فالهداية والتوفيق فضل من الله تعالى، ومن أضله الله؛ فقد أضله بعدله، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله وعدله، ولا يظلم ربك أحداً، فالأمر دائرٌ بين الفضل والعدل، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

قوله: «فَمِنْهُمْ الشَّقِيُّ»: وهو من أضله الله بعدله.

قوله: «وَالسَّعِيدُ»: وهو من وفقه الله وهداه بفضله.

قوله: «وَذَا»: أي السعيد «مُقَرَّبٌ».

قوله: «وَذَا»: أي الشقي «طَرِيدٌ».

وللإمام الشافعي أبياتٌ هي من أحسن ما قيل في هذا الباب نظمًا، كما ذكر ابن عبد البر

في «الاستذكار»، قال:

فَمَا شِئْتُ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	وَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسْنُ
عَلَى ذَا مَنْنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ	وَهَذَا أَعْنَتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ	وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ
وَمِنْهُمْ فَقِيرٌ وَمِنْهُمْ غَنِيٌّ	وَكُلُّ بَأْعَمَالِهِ مُرْتَهَنٌ

قوله: «لِحِكْمَةِ بِالْغَةِ قَضَاهَا»: ما ذكر في البيتين السابقين من أن الله تعالى يوفق من يشاء بفضلِهِ، ويضل من يشاء بعدله، وأنَّ الناس منهم الشقي والسعيد، ومنهم المُقَرَّب والطريد، هذا كُلُّهُ، وكذلك جميع أفعاله سبحانه وتعالى، وجميع ما يقع في الكون «لِحِكْمَةِ بِالْغَةِ قَضَاهَا» له سبحانه وتعالى في ذلك كله الحكمة البالغة، «يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقْتِضَاهَا» أي يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد على اقتضاها، فله الحمد سبحانه على مقتضى حكمته.



❏ قال الناظم:

وَهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الذَّرِّ (٤٣) فِي الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ



❏ قال الشارح:

هو سبحانه الذي يرى دبيب الذرّ، يُقال: دبّ النمل وغيره على الأرض يدبُّ دَبِيبًا: إِذَا مَشَى مَشْيًا رُوِيْدًا من غير إسراع، والذرّ: صغار النمل.

قوله: «**فِي الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صَمِّ الصَّخْرِ**»: يُقال: صخرة صَمَاء: أي صُلْبَة مُصَمَّتَة، وهذا فيه إثبات البصر لله سبحانه وتعالى، ومعنى البصر: إدراك المُبْصِرَات، فالنملة الصغيرة التي تَدَبُّ على الصخرة الصمَاء في الليلة الظلماء لا تستطيع أن تراها ولو كنت حادَّ البصر، ولو دَقَّقت النظر، والله سبحانه وتعالى يراها من فوق سبع سماوات، بل يرى جريان الدم في عروقها - سبحانه وتعالى -:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَيْلِ
وَيَرَى مَنَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمَخَّ مِنْ تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحْلِ
وَيَرَى خَرِيرَ الدَّمِّ فِي أَوْدَاجِهَا مُتَنَقِّلًا مِنْ مِفْصَلٍ فِي مِفْصَلٍ

فَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَرَى جَمِيعَ الْمُبْصِرَاتِ وَإِنْ دَقَّتْ وَصَغُرَتْ.

وإيمانُ العبد باسم الله البصير وصفة البصر يُفِيدُهُ فائدة عظيمة في جانبي التَّغْيِبِ والترهيب؛ ففي جانب التَّغْيِبِ: يحمل العبد على الإحسان في عبادته لربه سبحانه وتعالى؛ لَعَلِمِهِ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلَعٌ عَلَيْهِ، بصيرٌ به، ولا يزال العبد كذلك حتى يصل إلى أعلى مقامات الدين؛ مقام الإحسان؛ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وفي جانب التَّهْيِيبِ -أيضاً- كم من شخصٍ كَفَّ عن مُقَارَفَةِ المعاصي، وَغَشْيَانِ الذُّنُوبِ؛ لاستحضاره رؤية الله سبحانه وتعالى.



قال الناظم:

وَسَامِعٌ لِلْجَهْرِ وَالْإِخْفَاتِ (٤٤) بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلْأَصْوَاتِ

قال الشارح:

وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»^(١)، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾: بِالْمَاضِي، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾: بِالْمُضَارِعِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: بِالْأَسْمِ، وَلَوْ أَنَّ الْعِبَادَ جَمِيعًا؛ أَوَّلَهُمْ، وَآخِرَهُمْ، وَإِنْسَهُمْ، وَجَنَّتَهُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَنَادَوْا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، كُلُّ يَذْكُرُ حَاجَتَهُ، وَكُلُّ يَتَكَلَّمُ بِلُغَتِهِ وَلِهَجَّتِهِ؛ لَسَمِعَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَجْمَعِينَ دُونَ أَنْ يَخْتَلِطَ عَلَيْهِ صَوْتُ بَصَوْتٍ، أَوْ لُغَةٌ بِلُغَةٍ، أَوْ حَاجَةٌ بِحَاجَةٍ، قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتَكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ»^(٢).

وَإِيمَانُ الْعَبْدِ بِأَنَّ رَبَّهُ سَمِيعٌ وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ كُلَّهَا؛ يورثُهُ حِفْظُ لِسَانِهِ، وَمِرَاقَبَةُ كَلَامِهِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَىٰ مُوَازَبَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَشُكْرِهِ، وَالْإِكْثَارِ مِنْ مَنَاجَاتِهِ، وَإِطَالَةِ السُّجُودِ وَالِدُّعَاءِ،

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْمَجْتَبَى» (٣٤٦٠)، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي «السَّنَنِ» (١٨٨)، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»

(٢٤٨٣٢)، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ مَعْلُوقًا (فَتْحُ الْبَارِيِّ ١٣ / ٣٧٤).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (٢٥٧٧).

والتوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى باسمه السميع، وأن يعظم رجاءه في إجابة الله دعاءه، وهكذا الإيمان بباقي الأسماء والصفات ينبغي أن يُثمِر آثاره في قلب العبد وعبادته، مثلاً سبق في المجلس الماضي الكلام عن علو الله سبحانه وتعالى، هذه ليست مسألة كلامية لا فائدة منها؛ بل هي عقيدة عظيمة تؤثر على عبادتك، إذا استشعرت في دعائك وفي صلاتك وجميع عباداتك أنك تدعو وتعبد ملكاً عظيماً، قد استوى على عرشه، وأوامره تنزل على عباده، وتصعد إليه أعمالهم، وهو سبحانه في العلو المطلق، هذا يجعلك تشعر في قلبك بخوفٍ من الله، وهيبَةٍ عظيمة له، فهي عقيدة عظيمة تؤثر على عملك، وقد قال ابن القيم في «طريق الهجرتين»: «السير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عَجَب، وفتحُه عَجَب، صاحبه قد سيقَّت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، غيرَ تعبٍ ولا مكْدودٍ، ولا مُشَتَّت عن وطنه، ولا مشرَّدٍ عن سكنه»، ومن عرف الله بأسمائه وصفاته فإنَّه سيكون دائمَ الذكر لله بقلبه، وسيلهجُّ لسانه بذكره وتعظيمه وحمده، وتنساق جوارحه لطاعته، كما قال بعض السلف: «من عرف الله فهو في شغلٍ شاغل».



قال الناظم:

وَعِلْمُهُ بِمَا بَدَأَ وَمَا خَفِيَ (٤٥) أَحَاطَ عِلْمًا بِالْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ

قال الشارح:

أحاط علمه - سبحانه وتعالى - بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ولا شك أن للإيمان باسم الله العليم آثارًا مباركة على العبد؛ فإنه يورث العبد مراقبة الله تعالى، وعلمه باطلاعه عليه، وقد ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره «العذب النمير»: «أن العلماء أجمعوا على أن علم الله بعباده هو أكبر وأعظم وأزجر نزل من السماء إلى الأرض»، لو قيل لأهل بلد: إن أمير ذلك البلد يبيت عالمًا بكل ما يفعلونه في الليل من خسائس؛ لبأثوا متأذبين، وهذا خالق السماوات والأرض، الملك الجبار، يخبرنا في كتابه أنه أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإعلان والإسرار، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، لا يخفى عليه شيء من الأشياء، وسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا، يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ولا يخفى عليه شيء من عمل العباد، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ولا تكادُ تقلبُ ورقةً واحدةً من أوراق المصحف إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم؛ فهذا لا شك له آثارٌ مباركةٌ على إيمان العبد.

﴿ قَالَ الْغَنِيِّ ﴾

وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ (٤٦) جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ
وَكُلُّ شَيْءٍ رِزْقُهُ عَلَيْهِ (٤٧) وَكُلُّنَا مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ



﴿ قَالَ السَّارِعِ ﴾

قوله: «وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ»: استغنى عن الخلق لا يحتاج إلى أحدٍ منهم، وجميع
الخلق مفتقرون إليه.

قوله: «جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ»: تنزَّه وتقدَّس عن كل نقص.

قوله: «وَكُلُّ شَيْءٍ رِزْقُهُ عَلَيْهِ»: الخلق جميعاً مرزوقون والله رازقهم.

قوله: «وَكُلُّنَا مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ»: كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].



قال الناظم:

كَلَّمَ مُوسَى عَبْدَهُ تَكْلِيمًا (٤٨) وَلَمْ يَزَلْ بِخَلْقِهِ عَلَيْهِ
كَلَامُهُ جَلَّ عَنِ الْإِخْصَاءِ (٤٩) وَالْحَضَرِ وَالنَّفَادِ وَالْفَنَاءِ
لَوْ صَارَ أَقْلَامًا جَمِيعُ الشَّجَرِ (٥٠) وَالْبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرِ
وَالْخَلْقُ تَكْتُبُهُ بِكُلِّ آنٍ (٥١) فَتَتْ وَلَيْسَ الْقَوْلُ مِنْهُ فَإِنْ

قال الشارح:

قوله: «كَلَّمَ مُوسَى عَبْدَهُ تَكْلِيمًا»: ممَّا أثبتته الله لنفسه، وأثبتته له رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**:
تكليمه موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]،
والكلام صفة لله تعالى، يتكلم متى شاء، كيف شاء، إذا شاء، كما يليق بجلاله وعظمته،
إضافته إلى الله من باب إضافة الصفة للموصوف، والمضافات إلى الله تعالى على نوعين:
الأول: مضاف إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ مثل: سمع الله، وبصر الله،
وقدرة الله، وكلام الله، وضابطه: أن يكون المضاف وصفًا لا يقوم إلا بموصوف.
الآخر: مضاف إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى الخالق؛ مثل: عبد الله، وأمة الله،
وناقة الله، وبيت الله، وضابطه: أن يكون المضاف عينًا قائمًا بنفسه.

فالأول: إضافة أوصاف، والآخر: إضافة أعيان، قال ابن القيم **رَحِمَهُ اللَّهُ**:

فإِضَافَةُ الْأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ قَامَتْ بِهِ كِرَادَةُ الرَّحْمَنِ
وَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ مُلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سَيَّانِ
فَانْظُرْ إِلَى بَيْتِ الْإِلَهِ وَعِلْمِهِ لِمَا أُضِيفَا كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ

بيت الله؛ هذه إضافة أعيان، من إضافة المخلوق إلى الخالق.

علم الله؛ هذه إضافة أوصاف، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

وقد ثبتت لله تعالى خمس صفات في هذا الباب:

الأولى: الكلام: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الثانية: الحديث: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

الثالثة: القول: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

الرابعة والخامسة: النداء، والمناجاة: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

قوله: «وَلَمْ يَزَلْ يَخْلُقْهِ عَلِيمًا»: وهو بكل شيء عليم.

قوله: «كَلَامُهُ جَلٌّ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْحَضَرِ وَالنَّفَادِ وَالْفَنَاءِ»: يقول: إنَّ كلام الله تعالى لا يمكن إحصاؤه ولا حصره، ولا ينفد، ولا يفنى؛ لأنَّ كلامه صفته، وليس من صفاته شيءٌ ينفد أو يفنى، فهو - سبحانه وتعالى - الباقي بأسمائه وصفاته.

قوله: «لَوْ صَارَ أَقْلَامًا جَمِيعُ الشَّجَرِ»: لو أنَّ جميع أشجار الأرض صارت أقلامًا.

قوله: «وَالْبَحْرُ تُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ»: وصار البحر مدادًا لها، ومع هذا البحر سبعة أبْحُرٍ أخرى.

قوله: «وَالْحَلْقُ تَكْتُبُهُ بِكُلِّ آنٍ»: كُتِبَتْ بها كلمات الله.

قوله: «فَنَتْ وَلَيْسَ الْقَوْلُ مِنْهُ فَاِنْ»: لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر.

قوله: «وَلَيْسَ الْقَوْلُ مِنْهُ فَاِنْ»: ولا تنفذ كلمات الله، وهذا مأخوذ من آيتين من كتاب الله

تعالى: الأولى: آية الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ

جَنَانًا مِثْلَهُ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، والأخرى: آية لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ

أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال الناظم:

وَالْقَوْلُ فِي كِتَابِهِ الْمُفَصَّلِ (٥٢) بِأَنَّهُ كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ
عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى (٥٣) لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلَا بِمُقْتَرَى



قال الشارح:

قوله: «وَالْقَوْلُ»: الحقُّ الذي يَدِينُ به أهل السنة.

قوله: «فِي كِتَابِهِ الْمُفَصَّلِ»: وهو القرآن، وصفه الله تعالى بذلك في قوله: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣].

قوله: «بِأَنَّهُ كَلَامُهُ»: فالقرآن كلام الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
اسْتَجَارَكَ فَاجْرِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ
اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقد كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم
فيقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنْ قُرِئَ شَأْنٌ قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي»^(١).

قوله: «كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ»: أي من عند الله عزَّ وجلَّ.

قوله: «عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى»: محمد ﷺ، كما قال الله
تعالى: ﴿وَلَنَنْزِلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾
[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

قوله: «لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ»: خلافاً للجهمية القائلين بخلق القرآن، وقد أجمع أهل السنة

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٧٣٤)، والترمذي في «الجامع» (٢٩٢٥)، وابن ماجه في «السنن»

على أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فغاير بين الخلق والأمر، والقرآن من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولأن القرآن من كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وصفاته غير مخلوقة، تعالى الله أن يكون شيء من صفاته مخلوقًا، قال ابن أبي داود في «الحائية»: «

وَقُلْ غَيْرُ مُخْلُوقٍ كَلَامُ مَلِكِنَا بِذَلِكَ دَانَ الْأَتَقِيَاءُ وَأَفْصَحُوا

بهذا المعتقد وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق، «دَانَ الْأَتَقِيَاءُ وَأَفْصَحُوا»: فهو مُعْتَقِدُهُم الذي به يدينون، وعنه يُفْصَحُونَ في كتبهم ومصنّفاتهم ومجالسهم، والنُّقُول عنهم في ذلك كثيرة جدًا، وقد عقد اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» فصلًا سَمَّى فيه أكثر من خمس مئة نفس كلَّهم يُقَرَّرُ أَنَّ القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، وأن من قال: إِنَّهُ مخلوقٌ فهو كافر، قال ابن القيم في «النونية»: «

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ هُم بَلْ حَكَاهُ عَنَّا وَاللَّاكَايِي الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبْرَانِي

وأول من اشتهر عنه القول بخلق القرآن: هو الجهم بن صفوان، وكان ملحداً زنديقاً، لم يُثَبَّتْ أَنَّ فِي السَّمَاءِ رَبًّا، وَلَا يَصِفُ اللَّهُ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِّمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَيَنْتَهِي قَوْلُهُ إِلَى جُحُودِ الْخَالِقِ **عَزَّوَجَلَّ**، وَقَدْ قَتَلَهُ سَلْمُ بْنُ أَحْوَزَ؛ وَكَانَ أَمِيرَ شَرْطَةِ خُرَاسَانَ، قَتَلَهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ الْجَهْمَ يُنْكِرُ أَنَّ اللَّهَ كُلَّمُ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَقَدْ أَخَذَ الْجَهْمُ هَذَا الْقَوْلَ عَنِ الْجَعْدِ بْنِ دَرْهَمٍ، وَقَدْ قَتَلَهُ خَالِدُ الْقَسْرِيِّ الْأَمِيرُ يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى بِالْكُوفَةِ بِفَتْوَى أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ، خَطَبَ النَّاسَ فِي عِيدِ الْأَضْحَى فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ضَحُّوا تَقْبَلُ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ، فَإِنِّي مُضَحِّ بِالْجَعْدِ بْنِ دَرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْجَعْدُ عَلَوهَا كَبِيرًا» ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ فِي أَصْلِ الْمَنْبَرِ ^(١)، رَوَى ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِهِ

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٢٩).

«خلق أفعال العباد»، وغيره.

قال ابن القيم في «النونية»:

وَلَا جِلْ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدٍ الـ قَسْرِي يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلُهُ كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لِلَّهِ دُرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

وقد أخذ الجَعْدُ بِدَعْتِهِ هذه عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان بن سمعان عن طالوت ابن أختِ لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فهذه هي سلسلة الضلال، وهي سلسلة متصلة باليهود، وقد أخذ هذا القول عن الجهم: بِشَرِّ الْمَرِيسِيِّ، الذي رَدَّ عليه عثمان بن سعيد الدارمي، وعن بِشَرِّ أَخْذِهِ: أحمد بن أبي دُوَادٍ الذي أعلن بمذهب الجَهْمِيَّةِ، وحمل السلطان على امتحان الناس به، فكانت محنة القول بخلق القرآن، في أيام المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق، وقد عصم الله الأئمة وأعزَّ الدين بالإمام أحمد زمن المحنة، كما عصم الأمة وأعزَّ الدين بأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- زمن الردَّة.

وقد فارق السُّنَّةَ في هذا الباب طوائف:

الطائفة الأولى: الجهميَّة الذين صرَّحوا بخلق القرآن، وقد رَدَّ عليهم أهل السنة كما

سبق.

الطائفة الثانية: الواقفة الذين قالوا: القرآن كلام الله، ولا نقول: مخلوق، ولا نقول:

غير مخلوق، بل نتوقَّف، وهذا مقام لا يسع فيه التوقُّف؛ بل لا بدَّ من الإفصاح والتصريح حتى تستبين سبيل المجرمين، فهؤلاء تأثروا ببدعة الجهمية، ولم يستطيعوا الإفصاح بالمعتقد الحق؛ لذا قال الإمام أحمد: «الواقفة جهميَّة».

الطائفة الثالثة: اللفظيَّة الذين يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، وهي بدعة نشأت

عن بدعة الجهمية؛ لذا قال الإمام أحمد: «اللفظية جهميّة»؛ وذلك أَنَّ اللفظ مصدر، وهو يحتمل الملفوظ به؛ وهو كلام الله غير مخلوق، ويحتمل التلفظ؛ الذي هو فعل العبد، فاللفظ في قولهم: لفظي بالقرآن مخلوق مشتركٌ بين الملفوظ به؛ وهو كلام الله، وبين التلفظ؛ وهو فعل العبد.

الطائفة الرابعة: أصحاب الكلام النفسي.

قال ابن القيم:

رَعَمُوا الْقُرْآنَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً فَلَنَّا كَمَا رَعَمُوهُ قُرْآنَانِ
هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ مَخْلُوقٌ كَمَا قَالَ الْوَلِيدُ وَبَعْدَهُ الْفِتْنَانِ
قوله: «الْوَلِيدُ»: أي الوليد بن المغيرة.

قوله: «الْفِتْنَانِ»: الجهميّة، والمعتزلة.

وَالْآخِرُ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ فَقَائِمٌ بِالنَّفْسِ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدِّيَانِ

وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول من تسعين وجهًا في كتابه «التسعينية»:

قال ابن القيم:

وَكَذَلِكَ تَسْعِينِيَّةٌ فِيهَا لَهُ رَدُّ عَلَى مَنْ قَالَ بِالنَّفْسَانِي
تَسْعُونَ وَجْهًا بَيَّنَّتْ بُطْلَانَهُ أَغْنِي كَلَامَ النَّفْسِ ذَا الْوَحْدَانِي

قوله: «وَلَا بِمُفْتَرَى»: ليس القرآن بمفترى، كما قاله كفار قريش وغيرهم، فردّ الله تعالى

عليهم قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا

ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الفرقان: ٦].

قال الناظم:

يُحْفَظُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ (٥٤) يُتْلَى كَمَا يُسْمَعُ بِالْأَذَانِ
كَذَا بِالْبَصَرِ إِلَيْهِ يُنْظَرُ (٥٥) وَبِالْأَيْدِي خَطُّهُ يُسَطَّرُ
وَكُلُّ ذِي مَخْلُوقَةٍ حَقِيقَةٍ (٥٦) دُونَ كَلَامِ بَارِي الْخَلِيقَةِ
جَلَّتْ صِفَاتُ رَبِّنا الرَّحْمَنِ (٥٧) عَنْ وَصْفِهَا بِالْخَلْقِ وَالْحَدَثَانِ
فَالصَّوْتُ وَاللَّحْنُ صَوْتُ الْقَارِي (٥٨) لَكِنَّمَا الْمَتْلُوقُ قَوْلُ الْبَارِي
مَا قَالَهُ لَا يَقْبَلُ التَّبْدِيلَ (٥٩) كَلَّا وَلَا أَصْدَقُ مِنْهُ قِيلًا



قال الشارح:

قوله:

«يُحْفَظُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ يُتْلَى كَمَا يُسْمَعُ بِالْأَذَانِ
كَذَا بِالْبَصَرِ إِلَيْهِ يُنْظَرُ وَبِالْأَيْدِي خَطُّهُ يُسَطَّرُ
وَكُلُّ ذِي مَخْلُوقَةٍ حَقِيقَةٍ دُونَ كَلَامِ بَارِي الْخَلِيقَةِ»

عقد بهذه الأبيات الثلاثة ما نقله إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد أنه قال: «يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن على خمسة أوجه وهو فيها غير مخلوق: حفظٌ بالقلب، وتلاوةٌ باللسان، وسمعٌ بأذن، ونظرةٌ ببصر، وخطٌّ بيد؛ فالقلب مخلوق والمحفوظ غير مخلوق، والتلاوة مخلوقة والمتلو غير مخلوق، والسمع مخلوق والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق والمنظور إليه غير مخلوق، والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق»، انتهى كلامه.

قوله: «وَكُلُّ ذِي»: أي كل هذه المذكورات من القلب وحافظته، واللسان وحركته، والأذان واستماعها، والأبصار ونظرها، والأيدي وكتابتها.

قوله: «مَخْلُوقَةٌ حَقِيقَةٌ دُونَ كَلَامِ بَارِي الْخَلِيقَةِ»: وهو القرآن، فليس هو بمخلوق.

قوله: «جَلَّتْ صِفَاتُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ عَنْ وَصْفِهَا بِالْخَلْقِ وَالْحَدَثَانِ»: لأنَّ القرآن كلام الله تعالى، وكلامه صفته، وتعالى الله أن يكون شيء من صفاته مخلوقاً.

قوله: «فَالصَّوْتُ وَالْأَلْحَانُ صَوْتُ الْقَارِي لَكِنَّمَا الْمَتَلُو قَوْلُ الْبَارِي»: كان السلف يقولون: «الصوت صوت القاري، والكلام كلام الباري»، وقد قال الإمام أحمد: «القرآن كلام الله حيثُ تصرَّف»؛ أي سواءً حفظ في الصدور، أو كُتب في السُّطور، أو تُلي باللسان، أو سُمع بالأذان، فهو كلام الله حيثما توجه، وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بعد كلامه عن هذه المسألة في «النونية»:

فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ قَالَ — إِبْطَاقُ وَإِجْمَاعُ دُونَ بَيَانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَطَا الـ — أَذْهَانَ وَالْآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ

قوله: «مَا قَالَهُ لَا يَقْبَلُ التَّبْدِيلُ»: كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٣].

قوله: «كَأَنَّ»: أي لا يكون ذلك.

قوله: «وَلَا أَصْدَقُ مِنْهُ قِيلًا»: كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].



قال الناظم:

وَقَدْ رَوَى الثَّقَاتُ عَنْ خَيْرِ الْمَلَا (٦٠) بِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَا
فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ يَنْزِلُ (٦١) يَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَيُتَبَلُّ
هَلْ مِنْ مُسِيءٍ طَالِبٍ لِلْمَغْفِرَةِ (٦٢) يَجِدُ كَرِيمًا قَابِلًا لِلْمَغْذِرَةِ
يَمُنُّ بِالْخَيْرَاتِ وَالْفَضَائِلِ (٦٣) وَيَسْتُرُّ الْعَيْبَ وَيُعْطِي السَّائِلَ

قال الشارح:

هذه الأبيات فيها إثبات صفة النزول لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله، وأهل السنة والجماعة قاطبةً لسانُ حالهم ومقالهم في جميع صفات الله تعالى ما قاله الإمام مالكٌ في صفة الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وخذ شاهداً على هذا: وهو ما أخرجه الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفَّار»، بسنده، وصحَّحه الشيخ الألباني في «مختصره»، عن أبي جعفر الترمذي الفقيه أنه قال وقد سُئِلَ عن حديث النزول: «النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، فكلمة الإمام مالك تلك قد أنبتها الله نباتاً حسناً في قلوب أهل السنة، فأجروها في جميع الصفات، وقد علّق الذهبي فقال: قلت: «صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه»، قال: «وكان هذا الترمذي من بحور العلم، ومن العبّاد الورعين، مات سنة خمس وتسعين ومئتين».

وأحاديث النزول قد بلغت مبلغ التواتر، فهي ممّا يُقْطَعُ به كما قرّر الذهبي في كتاب العلو، وأصح تلك الأحاديث: ما أخرجه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ

لَهُ»^(١)، ومن ذلك: نزوله إلى سماء الدنيا عشية عرفة، كما في «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»^(٢) ومن ذلك: ما ورد في الأحاديث من نزول الله تعالى لفصل القضاء، فالأحاديث في صفة النزول مستفيضة كثيرة جدًا، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفةً لله تعالى على الكيفية التي يشاء سبحانه وتعالى، ويثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك؛ فلا يكتفون، ولا يمثلون، ولا ينفون، ولا يعطّلون، ويقولون: إِنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخْبَرْنَا كَيْفَ يَنْزِلُ؛ وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ: أَنَّهُ رَوَى إِثْبَاتَ النَّزُولِ ثَمَانِيَةَ وَعِشْرُونَ صَحَابِيًّا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ بِهَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْإِبَانَةِ، وَأَنْصَحَهُمْ لِلْأُمَّةِ، وَمَعَ كَمَالِ عِلْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللَّهِ، وَكَمَالِ فَصَاحَتِهِ، وَكَمَالِ نَصَحِهِ لِلْأُمَّةِ، مَعَ كَمَالِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَرِيدَ بِكَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ فِي أَشَدِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ؛ وَهُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ، فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»^(٣)، وَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»^(٤)، وَقَرَّرَ الْجَارِيَةُ عَلَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ الْمَقْصُودَ بِهِ: خِلَافَ ظَاهِرِهِ!! هَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَأَبْيَنِ الْمُحَالِ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ قِصَّةَ حَصَلَتِ لَشَيْخِهِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ؛ وَهُوَ أَخُو شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَحْمَدَ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، ذَكَرَهَا فِي فَصْلِ عَقْدِهِ فِي «الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ» فِي أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ مَعَ عِلْمِ الْمُتَكَلِّمِ وَفَصَاحَتِهِ وَنُصَحِهِ أَنْ يَرِيدَ بِكَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ، ذَكَرَ قِصَّةَ حَصَلَتِ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ مَعَ بَعْضِ الْجَهْمِيَّةِ،

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١١٤٥)، ومسلم في «الصحيح» (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٣٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١١٤٥)، ومسلم في «الصحيح» (٧٥٨).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٥٤)، ومسلم في «الصحيح» (٦٣٣).

وكيف أنَّه أفحَمَ هذا الجهميَّ بأنَّه يستحيل مع توفُّر هذه الثلاثة أن يُراد بالكلام غير ظاهره،
وكأنَّ ابن القيم كان مُستحضرًا هذه القصة حين قرَّر هذا المعنى في «النونية» بأحسن تقرير،
وألطف أسلوب؛ فقال رَحِمَهُ اللهُ:

فَسَلِ الْمُعْطَّلَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلٍ	تَقْضِي عَلَى التَّعْطِيلِ بِالْبُطْلَانِ
مَاذَا تَقُولُ أَكَّانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ	هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ الْعِرْفَانِ
أَمْ لَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحَتُهُ لَنَا	كُلَّ النَّصِيحَةِ لَيْسَ بِالْخَوَانِ
أَمْ لَا؟ وَهَلْ حَازَ الْبَلَاغَةَ كُلَّهَا	فَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى لَهُ طَوْعَانِ؟
فَإِذَا انْتَهَتْ هَذِي الثَّلَاثَةُ فِيهِ كَا	مَلَّةٌ مُبَرَّرَةٌ مِنَ النُّقْصَانِ
فَلَايٍ شَيْءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا	لِلنَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فِي الْأَزْمَانِ

أي ما قال مرَّةً واحدة: ينزل أمر ربنا، ينزل ملكٌ من ملائكته، وهو عالمٌ بالله، وناصحٌ
للأمة، وقادرٌ على البيان، فلماذا لم يُصرِّح ولا مرَّةً واحدة بأنَّه استولى وليس استوى، بأنَّه
ينزل أمره، أو ينزل ملكٌ من ملائكته، وليس ينزل هو سبحانه وتعالى، قال رَحِمَهُ اللهُ:

فَلَايٍ شَيْءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا	لِلنَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ فِي الْأَزْمَانِ
بَلْ مُفْصِحًا بِالضَّدِّ مِنْهُ حَقِيقَةَ الـ	إِفْصَاحِ مُوضِحَةٍ بِكُلِّ بَيَانِ
وَلَايٍ شَيْءٍ لَمْ يُصَرِّحْ بِالذِّي	صَرَّخْتُمْ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ
أَلْعَجَزَهُ عَنْ ذَاكَ؟ أَمْ تَقْصِيرُهُ	فِي النَّصْحِ؟ أَمْ لِحَفَاءِ هَذَا الشَّانِ؟
حَاشَاهُ بَلْ ذَا وَصْفُكُمْ يَا أُمَّةَ التَّـ	تَعْطِيلِ لَا الْمُبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ

وهذا الدليل -كما ذكر ابن القيم- يقضي على التعطيل بالبطلان.

وحديث النزول قال عنه الإمام الدَّارمي: «إنَّه أَعِظُ حَدِيثٍ لِلْجَهْمِيَّةِ».

هذا الحديث -حديث النزول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ»^(١) - فيه: إثباتُ
العلو لله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ فيه ذكرَ النزول.
وفيه: إثبات النزول لله سبحانه وتعالى.
وفيه: إثبات الكلام.



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١١٤٥)، ومسلم في «الصحيح» (٧٥٨).

قال الناظم:

وَأَنَّهُ يَجِيءُ يَوْمَ الْفَضْلِ (٦٤) كَمَا يَشَاءُ لِلْقَضَاءِ الْعَدْلِ

قال الشارح:

هذا البيت فيه: إثبات صفة المجيء لله تعالى كما يليق بجلاله، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فصفة المجيء والإتيان من صفات الله تعالى التي أثبتتها لنفسه، وهو إتيان ومجيء يليق بعظمته وجلاله لا يماثل فيه المخلوقين، فكما أن له علماً وسمعاً وبصراً وإرادة لا تماثل صفات المخلوقين؛ فكذلك الباب كله واحد، والقول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر، وكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء؛ فكذلك صفاته سبحانه لا تماثل صفات المخلوقين، قال الشيخ محمد سالم ولد عدود **رَحِمَهُ اللَّهُ** في نظمه: «مجمل اعتقاد السلف»:

وَمَا نَقُولُ فِي صِفَاتِ قُدْسِهِ فَرَعُ الَّذِي نَقُولُهُ فِي نَفْسِهِ
فَإِنْ يَقُلْ جَهْمِيَّهِمْ كَيْفَ اسْتَوَى كَيْفَ يَجِيءُ فَقُلْ لَهُ كَيْفَ هُوَا
ولا يصح تأويلها بمجيء أمره، أو مجيء ملك من ملائكته؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ ولاجماع السلف.

قال الناظم:

وَأَنَّهُ يَرَى بِـلَا انْكَارٍ (٦٥) فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ بِالْأَبْصَارِ
كُلُّ يَرَاهُ رُؤْيَا الْعِيَانِ (٦٦) كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَفِي حَدِيثِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ (٦٧) مِنْ غَيْرِ مَا شَكٍّ وَلَا إِبْهَامِ
رُؤْيَا حَقٍّ لَيْسَ يَمْتَرُونَهَا (٦٨) كَالشَّمْسِ صَحْوًا لَا سَحَابَ دُونَهَا
وَخُصَّ بِالرُّؤْيَا أَوْلِيَاءُ (٦٩) فَضِيلَةً وَحُجُبًا وَأَعْدَاؤُهُ

قال الشارح:

أَعْظَمُ النَّعِيمِ: رُؤْيَا وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، اسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ: مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا حُجِبَ أَعْدَاؤُهُ فَلَمْ يَرَوْهُ؛ تَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزِّيَادَةَ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ؛ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ صَهْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»^(١)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٨١).

قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»^(١)، وفي الصحيحين من حديث جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(٢)، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث: «وهذا الحديث من أصح الأحاديث على وجه الأرض المثلقة بالقبول، المجمع عليها عند العلماء بالحديث وسائر أهل السنة»، قال ابن القيم في «النونية»:

وَاللَّهُ لَوْ لَا رُؤْيَا الرَّحْمَنِ فِي الْـ
أَعْلَى النَّعِيمِ نَعِيمٌ رُؤْيَا وَجْهِهِ
وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْعَذَابِ حِجَابُهُ
وَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ نُسُوءَ الَّذِي
فَإِذَا تَوَارَى عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى
فَلَهُمْ نَعِيمٌ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ سِوَى
جَنَاتٍ مَا طَابَتْ لِذِي الْعَرْفَانِ
وَخِطَابُهُ فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
سُبْحَانَهُ عَنْ سَاكِنِي النَّيِّرَانِ
هُمْ فِيهِ مِمَّا نَالَتِ الْعَيْنَانِ
لَذَاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ
هَذَا النَّعِيمُ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

ولما رأى النسوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُهِلْنَ عن شعورهن بما رأين من جماله، فقطعن أيديهن ولم يُحَسِّنَ بألم القطع، وهذا في رؤية مخلوقٍ مُحدثٍ له من يُقَارِبُهُ وَيُدَانِيهِ فِي الْجَمَالِ، وَإِنَّمَا فَاقَ بَنِي جَنْسِهِ فِي الْجَمَالِ وَالْحَسَنِ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَا الظن بمن له الجمال كله، والكمال كله، ونسبة كل جمالٍ في الوجود إلى جماله وجلاله

أقل من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى عين الشمس»، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الْجَمِيلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَيْفَ لَا
مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْجَمِيلِ قَرِيبُهَا
وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
أُولَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي الْعَرْفَانِ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٨٠٦)، ومسلم في «الصحيح» (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٥٤)، ومسلم في «الصحيح» (٦٣٣).

وقال:

وَوَرَاءَ هَاتِيكَ السُّتُورُ مُحَجَّبٌ بِالْحُسْنِ كُلُّ الْعِزِّ تَحْتَ لَوَائِهِ
لَوْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ بَعْضَ جَمَالِهِ لَبَدَلْتُ مِنْكَ الرُّوحَ فِي إِرْضَائِهِ
مَا طَابَتْ الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَدِيثِهِ كَلَّا وَلَا الْأُخْرَى بِدُونِ لِقَائِهِ

وقد ثبت في دعائه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه كان يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ،

وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١).

قال الناظم:

وَكُلُّ مَالِهِ مِنَ الصِّفَاتِ (٧٠) أَتْبَهَتْهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ
أَوْ صَحَّ فِيمَا قَالَهُ الرَّسُولُ (٧١) فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ
نَمْرُهَا صَرِيحَةٌ كَمَا أَتَتْ (٧٢) مَعَ اعْتِقَادِنَا لِمَالِهِ اقْتَضَتْ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ (٧٣) وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ
بَلْ قَوْلُنَا قَوْلُ أَيْمَةِ الْهُدَى (٧٤) طُوبَى لِمَنْ بِهِدِيهِمْ قَدْ اهْتَدَى

قال الشارح:

قوله:

«وَكُلُّ مَالِهِ مِنَ الصِّفَاتِ أَتْبَهَتْهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ
أَوْ صَحَّ فِيمَا قَالَهُ الرَّسُولُ فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ»:

فَنَصِفُ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فِيمَا ثَبَتَ مِنْ سُنَّتِهِ، وَلَا نَتَجَاوَزُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ، فَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١٣٠٥)، وهو في صحيح الجامع الصغير (١٣٠١).

تعالى فحُتُّه: الإيمان به، والتسليم والقبول.

قوله: «نُمرُّها»: أي آيات الصفات وأحاديثها.

قوله: «صَرِيحَةً»: على ظواهرها.

قوله: «كَمَا أَتَتْ»: وهي جاءت دالة على معانٍ، فلا يمكن أن نُمرَّها كما جاءت إلا باعتقاد ما دلَّت عليه، كما قال الناظم:

مَعَ اعْتِقَادِنَا لِمَا لَهُ افْتَضَتْ

من صفات كماله، ونعوت جلاله، فلا تكون مُمرًّا لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إلا إذا أثبتَّ صفة الاستواء لله تعالى، ولا تكون مُمرًّا لقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلا إذا أثبتَّ صفة الرضا لله تعالى، وقد اشتهر عن السلف قولهم: «أمرُّوها كما جاءت بلا كيف»، جاء هذا عن مكحول، والزُّهري، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وهذه الكلمة تقتضي إثبات ما جاءت به آيات الصفات من المعاني لله تعالى كما يليق بجلاله وكمالِهِ.

مَسْأَلَةٌ: فيها ردُّ على المعطلة والمشبهة، كيف ذلك؟

الْجَوَابُ: قوله: «أمرُّوها»: هذا ردُّ على المعطلة، وقوله: «بلا كيف»: هذا ردُّ على المشبهة.

قوله: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ»: طريقة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته: إثبات ما أثبتَّه الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، فإيمان أهل السنة والجماعة بأسماء الله وصفاته سَلِمُوا فيه من أربعة محاذير زَلَّ فيها من زَلَّ في هذا الباب، هذه المحاذير الأربعة هي التي جمعها في قوله:

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ

المحذُور الأول في هذا الباب: التَّحْرِيفُ، وهو في اللغة: التَّغْيِيرُ، وهو هنا: تغيير لفظ

النَّصِّ، أو معناه، مثال تغيير اللفظ: تغيير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] من رفع الاسم الكريم إلى نصبه، ليكون التَّكْلِيم من موسى لا من الله؛ فهذا تحريف، ومثال تغيير المعنى: تغير معنى استواء الله على عرشه من العُلُو والاستقرار إلى الاستيلاء والملك؛ لِيَنْفُوا عنه معنى الاستواء المعروف في اللغة، فإيمان أهل السنة والجماعة في هذا الباب خالٍ من التحريف.

المَحْذُورُ الثَّانِي: التَّعْطِيلُ، وهو في اللغة: التَّرك والتَّخْلِيَة، وهو في الاصطلاح: إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات إمَّا كُلاً؛ كتعطيل غلاة الجهمية، وإمَّا أن يكون إنكاراً لبعضها؛ كحال من لم يثبت من الصفات إلا سبع صفات.

المَحْذُورُ الثَّالِثُ والرَّابِعُ: التَّكْيِيفُ والتمثيل: فالتَّكْيِيف: هو إثبات كيفية للصفة؛ كأن يقول: استواء الله على عرشه كَيْفِيَّةٌ كذا وكذا، فإثبات أهل السنة والجماعة للصفات لله تعالى إثبات وجود لا إثبات تكييف، لذا ترى في كلامهم: بلا كيف، المعنى: نُثِبَتِ الصِّفَةُ مَعَ نَفْيِ عِلْمِنَا بِالْكَيفِيَّةِ، وهو معنى قول الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، وأمَّا التمثيل: فإثبات مماثل للشيء، وهو هنا كقول الممثل: يد الله كيد المخلوق -تعالى الله-، والفرق بين التكييف والتمثيل: أَنَّ التَّمْثِيلَ ذكر الصِّفَةِ مَقْيَّدَةً بِالمِثَالِ، أمَّا التَّكْيِيفَ فذكر كَيْفِيَّتِهَا، وكلُّ ممثِّلٍ مَكْيِّفٌ ولا بدَّ، ولا يلزم العكس.

فطريقة أهل السنة والجماعة خالية من هذه المحاذير الأربعة.

قوله: «**بَلْ قَوْلُنَا**»: الذي نعتقده وندين به.

قوله: «**قَوْلُ أَيْمَةِ الْهُدَى**»: من الصحابة فمن تبعهم بإحسان.

قوله: «**طُوبَى لِمَنْ بِهِدْيِهِمْ قَدْ اهْتَدَى**»: فهم أولى الناس باقتفاء آثارهم، وسلوك سبيلهم؛ لما كانوا عليه من اتباع الكتاب والسنة، والتمسُّك بما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الناظم:

وَسَمَّ ذَا النَّوْعِ مِنَ التَّوْحِيدِ (٧٥) تَوْحِيدَ إِبْثَاتٍ بِلاَ تَرْدِيدِ
قَدْ أَفْصَحَ الْوَحْيِ الْمُبِينُ عَنْهُ (٧٦) فَالْتَمَسِ الْهُدَى الْمُنِيرَ مِنْهُ
لَا تَتَّبِعْ أَقْوَالَ كُلِّ مَارِدٍ (٧٧) غَاوٍ مُضِلٍّ مَارِقٍ مُعَانِدِ
فَلَيْسَ بَعْدَ رَدِّ ذَا التَّبْيَانِ (٧٨) مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ



قال الشارح:

قوله: «وَسَمَّ ذَا النَّوْعِ مِنَ التَّوْحِيدِ»: أي النوع الأول الذي ذكره في هذا الفصل؛ قال:

وَهُوَ نَوْعَانِ إِيَّامَنْ يَفْهَمُ
إِبْثَاتُ ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى صِفَاتِهِ الْعُلَا

وهو يرجع إلى توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فمن قوله:

إِبْثَاتُ ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا

إلى هذا الموضع، هذا كله في النوع الأول.

قوله: «تَوْحِيدَ إِبْثَاتٍ بِلاَ تَرْدِيدٍ»: يسمّى: توحيد الإِثبات؛ لاشتماله على إِثبات ما أثبتّه

الله تعالى لنفسه في كتابه، وأثبتّه له رسوله ﷺ، ويسمّى: توحيد المعرفة،

والتوحيد العلمي، وقد سمّاه الناظم في ترجمة الفصل: بتوحيد المعرفة والإِثبات.

قوله: «قَدْ أَفْصَحَ الْوَحْيِ الْمُبِينُ»: غاية الإفصاح.

قوله: «عَنْهُ»: أي عن توحيد المعرفة والإِثبات؛ وهو الربوبية، والأسماء والصفات.

قوله: «فَالْتَمَسِ الْهُدَى الْمُنِيرَ مِنْهُ»: أي من الوحي، فإنَّ الوحي هو الهدى والنور، ومن

الْتَمَسَ الهدى من الكتاب والسنة؛ وجد في نفسه الطمأنينة التامة، والراحة العظيمة بهذا

المعتقد الحقّ الذي تلقّاه من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهذا أمرٌ لا يجده أيُّ

صاحب هوى، وهيئات أن يجدّه، فليست الطمأنينة إلّا لمن بنى معتقده على كتاب الله، وسنة رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والمأثور عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

قوله: «**لَا تَتَّبِعْ أَقْوَالَ كُلِّ مَارِدٍ**»: أي عاتٍ متمرّد.

قوله: «**غَاوٍ**»: ضالٌّ، منهكٌ في الجهل.

قوله: «**مُضِلٌّ**»: فهو ضالٌّ بنفسه، مُضِلٌّ لغيره.

قوله: «**مَارِقٍ**»: خارجٍ من الإسلام.

قوله: «**مُعَانِدٍ**»: لنصوص الكتاب والسنة.

قوله: «**فَلَيْسَ بَعْدَ رَدِّ ذَا التَّبَيَّنِ**»: الذي أفصح الوحي المبين عنه غاية الإفصاح.

قوله: «**مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ**»: في قلب من ردّ ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].



قال الناظم:

«فَصَلُّ فِي بَيَانِ النَّوعِ الثَّانِي مِنَ التَّوْحِيدِ؛ وَهُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ، وَأَنَّهُ هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

هَذَا وَثَانِي نَوْعِي التَّوْحِيدِ (٧٩) إِفْرَادُ رَبِّ الْعَرْشِ عَنْ نَدِيدِ
أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ إِلَهًا وَاحِدًا (٨٠) مُعْتَرِفًا بِحَقِّهِ لَا جَاهِدًا



قال الشارح:

بعد أن فرغ الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ من بيان النوع الأول من نوعي التوحيد؛ وهو توحيد المعرفة والإثبات، الذي يشمل توحيد الربوبية؛ وتوحيد الأسماء والصفات، شرع يبين قسيمته؛ وهو توحيد الطَّلَب والقصد، ويقال له: توحيد الإرادة، والتوحيد العملي، وهو توحيد الألوهية؛ أي توحيد العبادة، والمقصود به: إفراد الله بالعبادة؛ أي بأفعال العباد. والعبادة: منها ما يكون بالقلب: كالمحبة، والخوف، والرجاء، ومنها ما يكون باللسان: كالدعاء، والاستغاثة، ومنها ما يكون بالجوارح: كالذَّبْح، والرُّكُوع، والسجود، فهذه كلها يجب على العباد أن يفرّدوا الله بها، وألا يجعلوا له فيها شريكًا.

قوله: «هَذَا وَثَانِي نَوْعِي التَّوْحِيدِ إِفْرَادُ رَبِّ الْعَرْشِ عَنْ نَدِيدٍ»:

أي إفراده - سبحانه - عن الشريك والنظير، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ إِلَهًا وَاحِدًا»: أن تعبد الله حال كونه إلهاً واحداً لا شريك له.

قوله: «مُعْتَرِفًا بِحَقِّهِ لَا جَاهِدًا»: وحال كونك معترفاً بحقه، لا جاحداً حقه، وحق الله

تعالى على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.



﴿ قَالَ النَّاطِمُ: ﴾

وَهُوَ الَّذِي بِهِ الْإِلَهُ أَرْسَلَا (٨١) رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَوَّلًا
وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالتَّبْيَانَ (٨٢) مِنْ أَجْلِهِ وَفَرَّقَ الْفُرْقَانَا



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «وَهُوَ»: أي هذا التوحيد؛ توحيد الألوهية.

قوله: «الَّذِي بِهِ الْإِلَهُ أَرْسَلَا رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَوَّلًا»:

لا يستقيم وزن البيت إلا بإسكان السين في قوله: «رُسُلُهُ»، واختلاس حركة الهاء؛ أي بترك الصلة.

وهاء الكناية للعرب فيها ثلاث لغات:

الأولى: الصلة.

الثانية: الاختلاس.

الثالثة: السكون.

وقد قرئ بالثلاثة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] «يُودِّهِ إِلَيْكَ»، «يُودِّهِ إِلَيْكَ»، والمقصود هنا: أن الوزن لا يستقيم إلا بإسكان السين، واختلاس حركة الهاء.

قوله: «رُسُلُهُ يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَوَّلًا»: فتوحيد الألوهية هو الذي أرسل الله به رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فدعوة الرسل متفقة على الدعوة إلى التوحيد إجمالاً كما في الآيتين السابقتين، وتفصيلاً: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا

لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وهكذا بقيّة الرسل.

قوله: «وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالتَّيَّانَا مِنْ أَجَلِهِ وَفَرَّقَ الْفُرْقَانَا»

قوله: «وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ»: أي الكتب.

قوله: «والتَّيَّانَا»: هذا من عطف العام على الخاص؛ لأنّ التَّيَّان يشتمل الكتاب والسنة.

قوله: «مِنْ أَجَلِهِ»: من أجل توحيد الألوهية.

قوله: «وَفَرَّقَ الْفُرْقَانَا»: أي بيّنه وفصله، وأنزله مفرقًا، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ

لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].



قال الناظم:

وَكَلَّفَ اللَّهُ الرَّسُولَ الْمُجْتَبَى (٨٣) قِتَالَ مَنْ عَنْهُ تَوَلَّى وَأَبَى
حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ خَالِصًا لَهُ (٨٤) سِرًّا وَجَهْرًا دَقُّهُ وَجَلَّ لَهُ
وَهَكَذَا أَمَّتْهُ قَدْ كَلَّفُوا بَدَا (٨٥) وَفِي نَصِّ الْكِتَابِ وَصِفُوا



قال الشارح:

قوله: «وَكَلَّفَ اللَّهُ الرَّسُولَ الْمُجْتَبَى»: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمُجْتَبَى: المختار.

قوله: «قِتَالَ مَنْ عَنْهُ»: عن توحيد الألوهية.

قوله: «تَوَلَّى وَأَبَى»: أي أعرض وامتنع.

قوله: «حَتَّى»: هي لبيان الغاية من قتالهم.

قوله: «يَكُونُ الدِّينُ خَالِصًا لَهُ»: كما قال تعالى: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أي وتكون الطاعة والعبادة كلها لله لا شريك له.

قوله: «حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ خَالِصًا لَهُ سِرًّا وَجَهْرًا دِقَّةً وَجَلَّةً»:

قوله: «دِقَّةً وَجَلَّةً»: أي قليل العبادة وكثيرها، صغيرها وكبيرها.
قوله: «وَهَكَذَا أَمَّتُهُ قَدْ كُفُّوا بَدَأًا»: بما كُلف به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قتال مَنْ عن توحيد العبادة تولى وأبى.

قوله: «وَفِي نَصِّ الْكِتَابِ وَصِفُوا»: وصفوا بذلك؛ أي بقتال من تولى وأبى، في آيات: منها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِبُونَ فِي سَكِينِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].



قال الناظم:

وَقَدْ حَوَّنَهُ لَفْظُهُ الشَّهَادَةَ (٨٦) فَهِيَ سَبِيلُ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ
مَنْ قَالَهَا مُعْتَقِدًا مَعْنَاهَا (٨٧) وَكَانَ عَامِلًا بِمُقْتَضَاهَا
فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَمَاتَ مُؤْمِنًا (٨٨) يُنْعَثُ يَوْمَ الْحَشْرِ نَاجٍ آمِنًا



قال الشارح:

قوله: «وَقَدْ حَوَّنَهُ»: أي حوت توحيد الألوهية واشتملت عليه.
قوله: «لَفْظَةُ الشَّهَادَةِ»: شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «فَهِيَ سَبِيلُ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ»: لا سبيل للفوز والسعادة في الدنيا والآخرة إلا بهذه الكلمة العظيمة: «لا إله إلا الله».

قوله: «مَنْ قَالَهَا»: أي قال لا إله إلا الله.

قوله: «مُعْتَقِدًا مَعْنَاهَا»: الذي دلّت عليه؛ وهو أنّه لا معبود حقّ إلا الله، كما سيبيّنه الناظم قريباً إن شاء الله.

قوله: «وَكَانَ عَامِلًا بِمُقْتَضَاهَا»: أي بما تقتضيه هذه الكلمة.

قوله: «فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَمَاتَ مُؤْمِنًا»: مات على شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «يُبْعَثُ يَوْمَ الْحَشْرِ»: يوم القيامة.

قوله: «نَاجٍ آمِنًا»: يُبْعَثُ نَاجِيًا مِنَ النَّارِ، آمِنًا مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.



قال الناظم:

فَإِنَّ مَعْنَاهَا الَّذِي عَلَيْهِ (٨٩) دَلَّتْ يَقِينًا وَهَدَتْ إِلَيْهِ
أَنْ لَيْسَ بِالْحَقِّ إِلَهٌ يُعْبَدُ (٩٠) إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدِ الْمُتَقَرِّدِ
بِالْخَلْقِ وَالرَّزْقِ وَبِالتَّذْيِيرِ (٩١) جَلَّ عَنِ الشَّرِيكِ وَالنَّظِيرِ



قال الشارح:

قوله: «فَإِنَّ مَعْنَاهَا»: أي معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «الَّذِي عَلَيْهِ دَلَّتْ يَقِينًا»: جزماً.

قوله: «وَهَدَتْ»: أرشدت «إِلَيْهِ».

قوله: «أَنْ لَيْسَ بِالْحَقِّ إِلَهٌ يُعْبَدُ»: أي لا معبود حقّ إلا الله.

قوله: «إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدِ الْمُتَقَرِّدِ»

بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَبِالتَّدْبِيرِ جَلَّ عَنْ الشَّرِيكِ وَالتَّنْظِيرِ:

فكما أنَّه متفردٌ بالخلق والرِّزق والتدبير، لا شريك له في ذلك ولا نظير؛ فكذاك ينبغي أن يُفرد بالعبادة لا شريك له فيها، وفي هذا إشارةٌ إلى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية؛ ولهذا يأتي كثيرًا في القرآن تقرير توحيد الربوبية الذي أقرَّ به الكفار لإلزامهم بالإقرار بتوحيد الألوهية؛ من أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهُهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وهكذا الآيات الأربع بعدها في كل آية منها تقرير توحيد الربوبية للإلزام بتوحيد الألوهية؛ فيقول في كل آية من هذه الآيات الخمس عقب تقرير توحيد الربوبية: ﴿إِلَهُهُ مَعَ اللَّهِ﴾، المعنى: أن من تفرد بهذه الأفعال التي هي من أفعال الله وحده؛ يجب أن يُخصَّص بالعبادة وحده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزُّحُرْف: ٨٧]؛ أي كيف يُصرفون عن عبادته؟! فأقارأهم بتوحيد الربوبية يلزم منه الإقرار بتوحيد الألوهية.



قال الناظم:

وَبِشُرُوطٍ سَابِقَةٍ قَدْ قِيِدَتْ (٩٢) وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا (٩٣) بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ (٩٤) وَالْإِنْقِيَادُ فَادِرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةُ (٩٥) وَفَقَّكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّ بِهِ



قال السارح:

بَيَّنْ هُنَا شُرُوطَ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

قوله: «وَبَشْرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ»: أي قَيِّدَ انتفاعُ قائلها بها بهذه الشروط السبعة.

قوله: «وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ»: من الكتاب والسنة.

قوله: «حَقًّا وَرَدَّتْ»: وردت صريحةً صحيحة.

قوله: «فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا»: أي قائل لا إله إلا الله.

قوله: «بِالنُّطْقِ»: بنطقه بلا إله إلا الله.

قوله: «إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا»: فلا بُدَّ من استيفاء شروطها الواردة في الكتاب والسنة،

فكما أنَّ الصلاة لا تُقبل إلا بشروطها المعلومة، والحج لا يُقبل إلا بشروطه المعلومة،

وجميع العبادات لا تُقبل إلا بشروطها المعلومة؛ فهكذا الشأن في لا إله إلا الله لا تُقبل إلا إذا

قام العبد بشروطها المعلومة في الكتاب والسنة، قيل للحسن البصري: إنَّ ناسًا يقولون: من

قال لا إله إلا الله؛ دخل الجنة؟ فقال: «من قال لا إله إلا الله فأدَّى حقَّها وفرضها دخل الجنة»،

وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله

منذ سبعين سنة»، فقال الحسن: «نِعْمَ الْعُدَّةُ، لَكِنْ لِيَا إلهَ إِلَّا اللهُ شُرُوطٌ، فَإِيَّاكَ وَقَذَفِ

الْمُحَصِّنَاتِ»، وقال وهبُ بن منبهٍ لمن سألَه: «أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟» قال: «بلى؛

ولكن ما من مفتاحٍ إِلَّا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتِحَ لك، وإلَّا لم يُفْتَحَ»، يشير

بالأسنان إلى شروط لا إله إلا الله.

«الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ وَالْإِنْقِيَادُ فَادِرِ مَا أَقُولُ

وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةُ وَفَقَّكَ اللهُ لِمَا أَحَبَّ بِهِ»:

قوله: «الْعِلْمُ»: الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل؛

وذلك بأن يعلم أنها تنفي جميع أنواع العبادة عن كل من سوا الله، وتثبت ذلك لله وحده،

ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا

مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ - أَيِ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٦]؛ أي يعلمون بقلوبهم

معنى ما نطقوا به بالسنتهم، وفي «صحيح مسلم» عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

قوله: «وَالْيَقِينُ»: الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك؛ بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً لا شك فيه ولا ريب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، وثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢)، وفي «صحيح مسلم» من حديث عن أبي رضي الله عنه -أيضاً-: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ لَقِيَْتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»^(٣)، فاشترط اليقين.

قوله: «وَالْقَبُولُ»: الشرط الثالث: القبول المنافي للردِّ، وقد أخبرنا الله تعالى عن تعذيبه المشركين في قوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ^(٢٣) وَقَفُوهُمْ^(٢٤) إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿[الصافات: ٢٢-٢٤]، ثم بيّن بعد آيات علّة ذلك: قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصافات: ٣٥-٣٦]، فجعل علّة تعذيبهم: عدم قبولهم، فدلّ هذا على اشتراط القبول.

قوله: «وَالْإِنْفِيَادُ»: الشرط الرابع: الانقياد المنافي للترك، فلا بُدَّ لقائل لا إله إلا الله من أن ينقاد للشرع، وأن يُسَلِّمَ وجهه لله؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾^(٢٦) [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ أي بلا إله إلا الله.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٣١).

قوله: «**وَالصِّدْقُ**»: الشرط الخامس: الصِّدْقُ المنافي للكذب، بأن يقولها صادقاً من قلبه، لذا قال الله تعالى في ذم المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وثبت في الصحيحين عن معاذٍ رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(١)، فاشتراط الصدق.

قوله: «**وَالِإِخْلَاصُ**»: الشرط السادس: الإخلاص المنافي للشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(٢)، فاشتراط الإخلاص.

قوله: «**وَالْمَحَبَّةُ**»: الشرط السابع: المحبة المنافية للبغض والكراهة، بأن يحب قائلها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودين الإسلام والمسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»^(٣)، أخرجه أحمد في «المسند».

فهذه هي شروط لا إله إلا الله، والمطلوب اجتماعها في العبد دون مناقضة منه لشيء منها، وليس المراد منها: عدّ ألفاظها وحفظها فقط، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له: أعددها لم يحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وهو يقع

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٢٨)، ومسلم في «الصحيح» (٣٢) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٩٩).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨٥٢٤) بنحوه.

كثيراً فيما يناقضها، فالمطلوب إذا: العلم والعمل معاً، ليكون المرء بذلك من أهل لا إله إلا الله صدقاً، ومن أهل كلمة التوحيد حقاً.



قال الناظم:

«فَصُلِّ فِي الْعِبَادَةِ، وَذَكَرْ بَعْضَ أَنْوَاعِهَا، وَأَنَّ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

ثُمَّ الْعِبَادَةُ هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ (٩٦) لِكُلِّ مَا يَرْضَى إِلَهُ السَّامِعِ
وَفِي الْحَدِيثِ مُحْضَاهَا الدُّعَاءُ (٩٧) خَوْفٌ تَوَكُّلٌ كَذَا الرَّجَاءُ
وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ خُشُوعٌ (٩٨) وَخَشْيَةٌ إِنَابَةٌ خُضُوعٌ
وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالِاسْتِغَاثَةُ (٩٩) كَذَا اسْتِغَاثَةٌ بِهِ سُبْحَانَهُ
وَالذَّبْحُ وَالنَّذْرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ (١٠٠) فَافْهَمْ هُدَيْتَ أَوْضَحَ الْمَسَالِكِ
وَصَرَفَ بَعْضُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ (١٠١) شِرْكٌ وَذَلِكَ أَقْبَحُ الْمَنَاهِي



قال الشارح:

بعد أن بيّن الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في الفصل السابق وجوب إفراد الله بالعبادة، عقّد هذا الفصل الذي بيّن فيه معنى العبادة، وذكر شيئاً من أنواعها، وأن من صرف منها شيئاً لغير الله؛ فقد أشرك.

قوله: «ثُمَّ الْعِبَادَةُ»: ابتداء رَحِمَهُ اللَّهُ ببيان معنى العبادة التي أمر الله بها، وخلق لها الخلق، وأرسل بها الرسل، وأنزل الكتب، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة، والجنة والنار.

قوله: «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَرْضَى إِلَهُ السَّامِعِ»: عقّد بهذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في أول كتاب «العبودية» قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»، فالقول الباطن: هو تصديق القلب بالله جل

وعلا، ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والقول الظاهر: العبادات التي تكون باللسان، وأعلى ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ثم تلاوة القرآن، والذكر، ونحو ذلك، والعمل الباطن: العبادات التي تقوم بالقلب؛ من محبة، وخوف، ورجاء، ونحو ذلك، والعمل الظاهر: العبادة الظاهرة؛ من صلاة، وحج، وجهاد، ونحو ذلك، وهذا التعريف هو باعتبار المتعبد به؛ أي بالنظر إلى الأفراد المندرجة تحت مُسمَّى العبادة.

وأما العبادة بالنظر إلى ذاتها: فهي تَأَلُّهُ القلب بالحب والخضوع، من قام بذلك لله؛ فقد أتى بالعبادة التي أمر بها.

قوله: «**وَفِي الْحَدِيثِ مُخَّهَا الدُّعَاءُ**»: ابتداء بالدُّعَاءِ في ذكر أنواع العبادة، والدُّعَاءُ أصل العبادات وأساسها، وقد جعل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الدعاء عين العبادة؛ فقال كما ثبت عنه من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١).

والدُّعَاءُ يطلق على معنيين:

أولهما: معنى عام؛ وهو دعاء العبادة، فيشمل جميع الطاعات، فالذي يصلي، أو يصوم، أو يعمل بأية طاعة؛ فهو بلسان حاله يسأل ربه أن يُثَبِّتَهُ ويتقبل منه، فهذا وجه كونه دعاءً.

والآخر: معنى خاص؛ وهو دعاء المسألة؛ بأن يسأل العبدُ رَبَّهُ مطلوبه، فيقول: يا غفور اغفر لي، ونحو ذلك.

ومعنى: «الدُّعَاءُ مُخَّ العبادة»^(٢): أَنَّهُ لُبُّهَا وَخَالِصُهَا، وهو بهذا اللفظ عند الترمذي من حديث أنسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وفيه مقال، لكنَّه ثابتٌ باللفظ الآخر الوارد في حديث النُّعْمَانِ بْنِ

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (١٤٧٩)، والترمذي في «الجامع» (٢٩٦٩)، وابن ماجه في «السنن» (٣٨٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٣٧١).

بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أبي داود والترمذي وابن ماجه: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ^(١).

وأكثر الشرك الواقع في الخلق في القديم والحديث: هو في الدعاء، ولما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مدارج السالكين»: أَنَّ من أنواع الشرك: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، قال: «وهذا أصلُ شرك العالم».

قوله: «خَوْفٌ»: أي من أنواع العبادة: الخوف من الله تعالى، والدليل على أَنَّ الخوف عبادة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فأمر بالخوف وعلّق عليه الإيمان؛ فدلّ على أَنَّهُ عبادة، وما ثبت أَنَّهُ عبادة؛ فجعلهُ لغير الله شركاً أكبر.

قوله: «تَوَكُّلٌ»: أي من أنواع العبادة: التوكّل على الله تعالى؛ وهو اعتماد القلب على الله وثقته به مع الأخذ بالأسباب، والدليل على أَنَّ التوكّل عبادة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، أمر بالتوكّل وعلّق عليه الإيمان؛ فدلّ على أَنَّهُ عبادة لا يجوز جعلها لغير الله تعالى.

قوله: «كَذَا الرَّجَاءُ»: أي من أنواع العبادة: الرجاء، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فرجاء العبادة بأن يتعلّق القلب بالمرجوّ في حصول منفعة، أو دفع مضرّة فيما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز جعلهُ لغير الله، فعلى العبد أن يُعلّق رجاءه بالله تعالى وحده دون من سواه.

قوله: «وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ خَشَوْعٌ»: هذه الثلاثة من أنواع العبادة، وقد جمعت الثلاثة آية في القرآن هي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، أثنى على أهلها المتّصفين بها؛ فدلّ على أَنَّها عبادة، لا يجوز جعلها لغير الله تعالى.

(١) سبق تخريجه قريباً.

قوله: «وَحَشِيَّةٌ»: أي من أنواع العبادة: الخشية؛ وهو خوفٌ مبنيٌّ على علمٍ لعظمةٍ من يُخشى وكمالٍ سلطانه، والدليل على أنها عبادة: أَنَّ الله تعالى أمر بها فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ وَأَخْشَوْنِي ﴿[البقرة: ١٥٠].

قوله: «إِنَابَةٌ»: أي من أنواع العبادة: الإنابة؛ وهي الرجوع إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، أي ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، أمر بها؛ فدلَّ ذلك على أنها عبادة.

قوله: «خُضُوعٌ»: أي من أنواع العبادة: الخضوع، وهو بمعنى: الخُشوع؛ إِلَّا أَنَّ الخُضُوعَ يغلب أن يكون في البدن، والخُشُوعُ في القلب: قال تعالى: ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وفي البصر: قال تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣]، وفي الصوت: قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾ [طه: ١٠٨].

قوله: «وَالِاسْتِعَاذَةُ»: أي من أنواع العبادة: الاستعاذة، والدليل على أن الاستعاذة عبادة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿[الفلق: ١-٢]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، أمر نبيّه -وأُمّتُهُ تبعٌ له- بأن يعتصموا به، ويلتجئوا إليه سبحانه وتعالى.

والاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه أمرٌ جائز، في الصحيح: «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأَتَتْ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَاذَتْ بِأَمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١)، أمّا الاستعاذة بالأَمْوات، أو بالأحياء الغائبين، أو بالأحياء الحاضرين فيما لا يقدر عليه إِلَّا اللهُ؛ فهذه الاستعاذة التي لا يجوز جعلها لغير الله.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٦٨٩).

قوله: «**وَالِاسْتِعَانَةُ**»: أي من أنواع العبادة: الاستعانة؛ وهي طلب العون من الله تعالى، والدليل على أنها عبادة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ أي نخصُّكَ بالعبادة ولا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ أي نستعين بك ولا نستعين بغيرك، وعند الترمذي من حديث وصية النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لابن عباس: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)؛ أي ولا تستعن بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأمَّا الاستعانة بالمخلوق فيما هو قادر عليه؛ فهذا جائز ما دام من التعاون على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله: «**كَذَا اسْتِغَاثَةٌ بِهِ سُبْحَانَهُ**»: أي من أنواع العبادة: الاستغاثة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ أي تطلبون منه إزالة الشدة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، ويُقال فيها ما قيل في الاستعاذة؛ فمن استغاث بحَيٍّ حاضرٍ قادرٍ؛ جاز ذلك، كما وقع للرجل من بني إسرائيل مع موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، أمَّا فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإنَّما يُسْتَغَاثُ بالله.

قوله: «**وَالذَّبْحُ**»: أي من أنواع العبادة: الذبح نُسْكًا لله تعالى، من هَدْيٍ، وأضحية، وعقيقة؛ قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأُخِّرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ النُّسْكُ: الذَّبْحُ، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ^ط [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]؛ أي في هذه العبادات، فمن ذبح لغير الله؛ فقد أشرك مع الله غيره، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٣]؛ أي بهذا التوحيد الخالص أُمِرْتُ.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٥١٦).

قوله: «وَالنَّذْرُ»: أي من أنواع العبادة: النذر لله **عَزَّجَلَّ**، والدليل على أن النذر عبادة قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، مدحهم بوفائهم بالنذر؛ فدلّ على أنه عبادة.

قوله: «وَعَبْرُ ذَلِكَ»: أي من العبادات الظاهرة والباطنة، وهذه إشارة إلى أن العبادة غير محصورة في هذه الأنواع التي ذكر؛ بل هي كثيرة جداً، لأنّ كلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة، وحقيقة العبادة - كما سبق - كمال الحبّ وكمال الخضوع.

قوله: «وَصَرَفُ بَعْضِهَا»: أي بعض أنواع العبادة ولو واحداً منها من العبادة التي ذكرها، أو من غيرها من العبادات.

قوله: «لِغَيْرِ اللَّهِ»: من ملكٍ مُقَرَّبٍ، أو نبيٍّ مرسل، أو وليٍّ، أو قبر، أو شجر، أو حَجَرٍ، أو غير ذلك.

قوله: «شِرْكٌ»: أي شركٌ أكبر.

قوله: «وَذَلِكَ»: أي الشرك.

قوله: «أَقْبَحُ الْمَنَاهِي»: أقبح المناهي على الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]؛ أي لا أحد أضلّ منه، وفي الصحيحين عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنّه قال: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١)، فالشرك - كما قال الناظم - أعظم المناهي.

ثم بعد أن بيّن التوحيد، شرع يُبيّن ضده: وهو الشرك، وبضدّها تتبين الأشياء، وقد قال الشاعر:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ رُكْرُكَ لِكِنْ لِتَوَقُّيهِ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٠٠١)، ومسلم في «الصحيح» (٨٦).

وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ مَنِ الْخَيْرِ يَقَعُ فِيهِ

وهذه حال المؤمن؛ يكون فطنًا حاذقًا، من أعرف الناس بالشر، وأبعدهم عنه.



قال الناظم:

«فَصَلِّ فِي بَيَانِ ضِدِّ التَّوْحِيدِ؛ وَهُوَ الشَّرْكَ، وَأَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَصْغَرَ، وَأَكْبَرَ، وَبَيَانُ كُلِّ مِنْهُمَا».

وَالشَّرْكَ نَوْعَانِ: فَشَرْكَ أَكْبَرُ (١٠٢) بِهِ خُلُودُ النَّارِ إِذَا لَا يُغْفَرُ
وَهُوَ اتِّخَاذُ الْعَبْدِ غَيْرِ اللَّهِ (١٠٣) نِدَاءً بِهِ مَسْوِيًّا مُضَاهِي
يَقْصِدُهُ عِنْدَ نَزُولِ الضُّرِّ (١٠٤) لِحَلْبِ خَيْرٍ أَوْ لِدَفْعِ الشَّرِّ
أَوْ عِنْدَ أَيِّ غَرَضٍ لَا يَقْدِرُ (١٠٥) عَلَيْهِ إِلَّا الْمَالِكُ الْمُقْتَدِرُ
مَعَ جَعْلِهِ لِذَلِكَ الْمَدْعُوِّ (١٠٦) أَوْ الْمُعْظَّمِ أَوْ الْمَرْجُومِ
فِي الْغَيْبِ سُلْطَانًا بِهِ يَطَّلَعُ (١٠٧) عَلَى ضَمِيرٍ مَنْ إِلَيْهِ يَفْزَعُ
وَالثَّانِ شَرْكَ أَصْغَرُ وَهُوَ الرِّيَا (١٠٨) فَسَّرَهُ بِهِ خِتَامُ الْأَنْبِيَا
وَمِنْهُ إِقْسَامٌ بَغَيْرِ الْبَارِي (١٠٩) كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْأَخْبَارِ



قال السارح:

قوله: «وَالشَّرْكَ نَوْعَانِ»: الشرك: جعل شيء من حقِّ الله لغيره.

وهو نوعان - كما ذكر الناظم - :

أحدهما: شرك أكبر يزول معه أصل الإيمان.

وَالْآخِرُ: شرك أصغر يزول معه كمال الإيمان.

وبينهما فروق:

الفرق الأول: أَنَّ الشَّركَ الأكبرَ مخرجٌ من المِلَّةِ، أمَّا الأصغرُ فلا يُخرجُ من المِلَّةِ.

الفرق الثاني: أَنَّ الشَّركَ الأكبرَ صاحِبُهُ مَخْلَدٌ في النارِ، كما قال: «**بِهِ خُلُودُ النَّارِ**»، أمَّا الأصغرُ فصاحِبُهُ لا يُخْلَدُ في النارِ، حتى لو دخلها بسبب رُجْحَانِ سيئاته على حسناته؛ فَإِنَّ مَالَهُ إِلَى الْجَنَّةِ.

الفرق الثالث: أَنَّ الشَّركَ الأكبرَ لا يَغْفِرُهُ اللهُ أَبَدًا لَمَنْ مات عليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا قول الناظم: «**إِذْ لَا يُغْفَرُ**»: «إِذْ» تعليلية؛ به خلود النَّارِ؛ لَأَنَّهُ لَا يُغْفَرُ، أمَّا الشَّركَ الأصغرَ فقليل: إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَغْفِرَهُ اللهُ تعالى كما يغفرُ الكبائرَ، وقيل: لا يغفره اللهُ أَبَدًا.

وتوضيح ذلك: أَنَّ العلماء اختلفوا في الشَّركَ الذي لا يُغْفَرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، هل هو شاملٌ للأكبر والأصغر؟ أو هو خاصٌّ بالأكبر؟ على قولين:

أحدهما: أَنَّهُ شاملٌ للأكبر والأصغر، ووجهه: أَنَّ الفعل «يُشْرَكَ» في الآية وقع في سياق النفي؛ فيفيد العموم؛ لَأَنَّ (أَنْ يُشْرَكَ) يؤولُ بمصدره؛ فيكون التقدير: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكَاً به، وهو نكرةٌ في سياق النفي فيفيد العموم، فعلى هذا؛ الشَّركَ كله لا يدخل تحت المشيئة؛ لعظم خطيئة الشَّركِ، فمن مات على الشَّركِ ولو شرَكًا أصغر؛ فهو غير داخلٍ تحت المشيئة على هذا القول.

والقول الآخر: أَنَّ المراد بالشَّركِ في الآية الأكبر؛ فيكون من العام الذي أريد به الخصوص، وهذا مذهب الجمهور، وآيات الشَّركِ الواردة في القرآن كثيرًا ما يُراد بها الأكبر

دون الأصغر؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذه الآية لا يدخل فيها الشرك الأصغر بالإجماع، قالوا: فكذلك لا يدخل الأصغر في آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، فالأكبر لا يغفر بالإجماع لمن مات عليه، وأمّا الأصغر ففيه الخلاف المُتَقَدِّم، وهذا يوجب أن يحذر العبد، وأن يخاف من الشرك كله، والمغفرة التي الكلام عنها هنا هي لمن مات على الشرك، أمّا المغفرة التي تحصل للعبد بالتوبة، فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه وغفر له ذنوبه كلها ولو كان فيها شركٌ أكبر.

قوله: «وَهُوَ»: أي الشرك.

قوله: «اتَّخَذَ الْعَبْدُ غَيْرَ اللَّهِ نِدًّا»: أي نظيرًا.

قوله: «بِهِ مُسَوِّيًا مُضَاهِيًا»: يصرف إليه العبادة، ويعبده مع الله، كما ذكر الله تعالى عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يسوون بالله غيره، ويشركون به.

قوله: «يَقْصِدُهُ»: أي يقصد ذلك النَّد.

قوله:

«يَقْصِدُهُ عَنْدَ نَزُولِ الضَّرِّ» لَجَلْبِ خَيْرٍ أَوْ لِدَفْعِ الشَّرِّ
أَوْ عَنْدَ أَيِّ غَرَضٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْمَالِكُ الْمُقْتَدِرُ:

يقصده لجلب خير له، أو لدفع شرِّ عنه، أو عند احتياجه لأيِّ غرض من الأغراض التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله: «مَعَ جَعْلِهِ لِذَلِكَ الْمَدْعُوِّ أَوْ الْمُعْظَمِّ أَوْ الْمَرْجُوِّ»: من مَلَكٍ، أو نَبِيٍّ، أو وَلِيِّ، أو

شَجَرٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

قوله: «**فِي الْغَيْبِ سُلْطَانًا بِهِ يَطَّلَعُ عَلَى ضَمِيرٍ مَنْ إِلَيْهِ يَفْزَعُ**»: يعتقد أنه يسمع دعاءه، ويرى مكانه، ويعلم حاجته، ويقضيها بقدرة اعتقدها فيه مع الله، فمن دعا الأموات والغائبين وسألهم الولد، أو سألهم قضاء الحاجات وكشف الكربات؛ فهذا شرك، وقد سمى الله تعالى هذا العمل شركًا: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۚ﴾ (١٣) **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** ﴿١٤﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، يذهب أحدهم ويستغيث بالمقبورين من دون الله، ويدعوهم ويسألهم الولد، ثم يقول: هذا توسل!! هو شرك بالله بنص القرآن، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]؛ أي يتبرءون منكم، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]؛ لا يُخبرك أحدٌ أصدق من الله سبحانه وتعالى، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله؛ فقد أشرك.

ولا فرق بين المشرك والكافر من حيث المآل؛ فكلاهما خالدٌ في النار؛ قال الله تعالى عن المشرك: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال عن الكافر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤) **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴿٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، فلا فرق بينهما من حيث المآل، كلاهما مُخلدٌ في النار، وتجد تفريقاً بينهما في كلام العلماء؛ فتراهم يطلقون اسم الشرك: في صرف بعض خصائص الله لغيره؛ كالسجود لغير الله، ودعاء غير الله، والطواف على القبور، ويطلقون اسم الكفر في غير ذلك ممّا كان فيه استهزاءً بالدين، أو جحدٌ لمعلوم من الدين بالضرورة، أمّا في الآخرة فمآل الكافر والمشرك واحد: وهو الخلود في النار.

ثم انتقل إلى بيان الشرك الأصغر.

قوله: «وَالثَّانِ شِرْكُ أَصْغَرٍ»: لا يخرج صاحبه من الملة.

قوله: «وَهُوَ الرَّيَاءُ فَسَّرَهُ بِهِ خِتَامُ الْأَنْبِيَاءِ»: يشير إلى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: الرَّيَاءُ؛ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَحْدُونَ عَنْهُمْ جَزَاءً»^(١).

وللشرك الأصغر صور منها ما ذكره في قوله: «وَمِنْهُ إِقْسَامٌ بِغَيْرِ الْبَارِي» كأن يقول: والنبي، والكعبة، والأمانة «كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْأَخْبَارِ»: في مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ قَالَ: أَشْرَكَ»^(٢)، أخرجه أبو داود والترمذي، وهو هكذا على الشك من الراوي، وأكثر من أخرج الحديث أخرجه بلفظ: «أشرك»، وهو الأنسب للمعنى؛ لأن الحلف بغير الله إشراك مع الله في التعظيم.

ومن صور الشرك الأصغر: قول: ما شاء الله وشئت، بالعطف بالواو التي تقتضي التسوية.

ومنه: أن يتخذ سبباً لم يجعله الله سبباً؛ كمن يربط في عضده خيطاً، أو يضع في يده حلقة يستدفع بها العين.

ومنه: قول: «لولا الله وفلان»، فهذا من الشرك الأصغر.

وقد ثبت عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أَنَّهُ قَالَ: «الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاءِ سَوْدَاءٍ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانَةً، وَحَيَاتِي. وَيَقُولَ: لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا لَا تَأَنَّا اللَّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبُطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٦٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٢٥١)، والترمذي في «الجامع» (١٥٣٥).

وَشِئْتُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ»^(١)، وانظر إلى قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ»، النَّمْلَةُ لو مشت على الرَّمْلِ لم يُلْحَظْ أثرها، فكيف إذا مشت على صخرة مَلْسَاءَ؟! وهذا معنى: الصَّفَاةُ، الصَّفَاةُ: الصَّخْرَةُ الْمَلْسَاءُ، فكيف إذا كانت هذه الصَّخْرَةُ الْمَلْسَاءُ سوداء؟! فكيف إذا كان ذلك في ظلمة الليل -نسأل الله العافية-، وهذا يدل على صفاء التوحيد، وأنه يؤثر فيه أدنى مؤثر، فعلى الإنسان أن يُرَابِطَ على ثَغْرِ لسانه وقلبه حتى لا يؤتى صفاء توحيده منها، فالشرك شأنه عظيم، وخطره جسيم، وقد خافه علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ»^(٢)، وإبراهيم عليه السلام وهو الموصوف بتحقيق التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وهو الذي كَسَرَ الأصنام يخاف من الشرك على نفسه، وعلى بَنِيهِ، ويقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فإذا كانت هذه حال إبراهيم عليه السلام؛ فغيره بالخوف من الشرك أولى، قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم!» وقد علق البخاري في «صحيحه» بصيغة الجزم قول ابن أبي مليكة: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»^(٣)، وإذا كان الشرك يُخَافُ منه في زمن سابق؛ فإنه في هذا الزمن أحرى وأجدُر أن يخاف؛ لأن الشُّبُهَةَ أَضَحَّتْ أَقْرَبَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، تنتشر في القنوات، وفي الكتب، وفي وسائل التَّوَاصل، وقد تعددت صور الشرك، فالمقام عظيم، وفي «صحيح مسلم»: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «ال تفسير» (٢٢٩).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٦٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» معلقاً (١/ ١٨).

بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١)، هكذا في خلال ساعات تأتي شبهة فيحصل ما أخبر به النبي ﷺ، فالشأن خطيرٌ ومُخيفٌ؛ لذا على العبد أن يبتهل إلى الله بصدق أن يثبتهُ ويجنبهُ الشرك، وأن يخاف على نفسه من الشرك، كما كان خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن الناس من يظنُّ أنه بمنأى ومعزٍلٍ عن الشرك، وأنه لا يمكن أن يقع فيه، وهذه الطمأنينة أدَّت إلى أن يستزِلَّ الشيطان من استزَلَّ إلى الوقوع في صورٍ من الشرك المختلفة، وقد قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشَّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»^(٢)، وكلِّما عظم توحيد العبد؛ عظم خوفهُ من الشرك، فعلى العبد أن يحذر الشرك على نفسه، وأن يفرع إلى ربِّه في حفظه، وأن يكثُر من سؤال الله أن يثبتهُ على التوحيد، وأن يجنبهُ الشرك.



(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» (١١٨).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٦٠٦).

قال الناظم:

«فَصْلٌ فِي بَيَانِ أُمُورٍ يَفْعَلُهَا الْعَامَّةُ مِنْهَا مَا هُوَ شِرْكٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْهُ، وَبَيَانِ حُكْمِ

الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ».

وَمَنْ يَتَّقِ بَوْدَعَةً أَوْ نَابٍ (١١٠) أَوْ حَلَقَةً أَوْ أَغْيِنَ الذَّنَابِ
أَوْ خَيْطٍ أَوْ عُضْوٍ مِنَ النُّسُورِ (١١١) أَوْ وَتَرٍ أَوْ تُرْبَةً الْقُبُورِ
لَا يَأْمُرُ كَائِنٍ تَعَلَّقَهُ (١١٢) وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيَّ مَا عَلَّقَهُ



قال الشارح:

بعد أن بيّن الناظم رَحْمَةُ اللَّهِ معنى التوحيد، وبيّن ضده؛ وهو الشرك، عقد هذا الباب في بيان بعض صور الشرك، وبيان حكم الرُّقَى والتَّمَائِمِ.

قوله: «وَمَنْ يَتَّقِ بَوْدَعَةً»: البودعة: بسكون الدال، والودعة: بفتحها، وتجمع على ودعات: خرز بيض تُخرج من البحر كانوا يُعلقونها على الصبيان مخافة العين، وفي الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(١)، هذا دعاء عليه، أي لا تركه في دعة وسكون.

قوله: «أَوْ نَابٍ»: كانوا يأخذون ناب الضبع ويعلقونه خوفاً من العين.

قوله: «أَوْ حَلَقَةٍ»: كانوا يُعلقون حلقة خوفاً من العين.

قوله: «أَوْ أَغْيِنَ الذَّنَابِ»: كانوا يُعلقون عين ذئب ميت يزعمون أن الجن تفر منه.

قوله: «أَوْ خَيْطٍ»: كانوا يُعلقون خيوطاً معقودة.

قوله: «أَوْ عُضْوٍ مِنَ النُّسُورِ»: كالعظم ونحوه، يجعلونها خرزاً ويعلقونها على الصبيان.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٦٧٦).

قوله: «أَوْ وَتَرٍ»: كانوا في الجاهلية يُعَلِّقُونَ وَتَرَ الْقَوْسِ يَجْعَلُونَهَا قَلَانِدَ فِي أَعْنَاقِ الصَّبِيَّانِ، أَوْ الدَّوَابِّ.

قوله: «أَوْ تَرْبَةِ الْقُبُورِ»: يستشفون بها.

قوله: «لَأَيِّ أَمْرِ كَاتِنٍ تَعَلَّقَهُ»: فمن فعل شيئاً من ذلك لأَيِّ أمرٍ من جلب خيرٍ، أو دفع شرٍّ.

قوله: «وَكَلَّهَ اللَّهُ»: أي تركه.

قوله: «إِلَى مَا عَلَّقَهُ»: تركه الله إلى ما علقه دُون الله، ومن وُكِّلَ إلى غير الله هلك، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِ إِلَيْهِ»^(١)، وكُلُّ ما عُلِّقَ بقصد دفع البلاء، أو رفعه فهو تميمة؛ بقصد دفع البلاء: أي قبل نزوله، أي بقصد ألا يُصاب مثلاً بسحرٍ، أو عينٍ، وبقصد رفع البلاء: أي بعد نزوله؛ أي تكون سبباً لإزالة سحرٍ موجودٍ، أو عينٍ، أو مَسٍّ، أو مرضٍ، سواءً كانت من خَرَزٍ، أو خَيْطٍ، أو وَرَقٍ، أو غير ذلك، وسواءً علقها على نفسه، أو علقها على غيره من الصبيان، أو من البهائم، أو على الدَّوَابِّ والسَّيَّاراتِ، أو على أبواب البيوت، وقد كانوا في الجاهلية يُعَلِّقُونَ السُّيُورَ والتَّمَائِمَ في رقاب البهائم، ومرادهم -كما يزعمون-: أن ذلك يكسر العين ويردُّها، وأمَّا اليوم فبعضهم يُعَلِّقُ صورة كَفٍّ، وبعضهم يُعَلِّقُ صورة نعلٍ صغيرة، وبعضهم يُعَلِّقُ جلود الحيوانات من تماسيح وغيرها، والناس يتفننون في هذا، فَصُورُ هذا النوع من الشرك لا تنتهي، ويجمعها: أن يُلبَسَ شيءٌ أو يُعَلَّقَ ويُتَوَكَّمُ أنَّه سببٌ لدفع البلاء أو رفعه، وهو من الشرك الأصغر، وموجب كونه شركاً أصغر: اعتقادُ السببية فيما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً، والقاعدة عند العلماء: أن من اتخذ سبباً لم يجعله الله سبباً شرعاً ولا قدرًا؛ فقد أشرك الشرك الأصغر.

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤٠٧٩)، والترمذي في «الجامع» (٢٠٧٢).

والأسباب التي تؤدي إلى المقصود نوعان:

أولهما: أسباب شرعية.

والآخر: أسباب قدرية.

فالأَسباب الشرعية: هي التي دَلَّ الشرع على نفعها؛ كالرُّقية بالقرآن، وكماء زمزم، وغير ذلك مما ثبت نفعه بالكتاب أو السنة.

والأسباب القدرية: هي التي ثبت نفعها بالتجربة وعادة الناس؛ كالأدوية، فإنها سببٌ للشفاء.

فمن اتخذ سبباً لم يجعله الله سبباً شرعاً ولا قدرًا؛ ففعله شركٌ أصغر، أمّا إذا اعتقد استقلالها بالتأثير، وأنها تملك النفع والضّر استقلالاً عن مشيئة الله، فيعتمد عليها في جلب النّفع، وفي دفع الشرّ؛ فهذا من الشرك الأكبر؛ لأنّه صار حينئذٍ متوكِّلاً على سوى الله ملتجئاً إليه.



قال النّازم:

ثُمَّ الرُّقَى مِنْ حُمَةٍ أَوْ عَيْنٍ (١١٣) فَإِنْ تَكُنْ مِنْ خَالِصِ الْوَحْيَيْنِ
فَذَلِكَ مِنْ هَذِي النَّبِيِّ وَشِرْعَتِهِ (١١٤) وَذَلِكَ لَا اخْتِلَافَ فِي سُنَنِهِ



قال الشارح:

قوله: «ثُمَّ الرُّقَى مِنْ حُمَةٍ»: الحُمَةُ: لدغ ذوات السُّموم؛ كالحية والعقرب.

قوله: «أَوْ عَيْنٍ»: العين حقّ؛ وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ

الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»^(١)، فالرُّقِيَّةُ عظيمةُ النفعِ في الشفاءِ مِنْ لَدَغَةِ ذَوَاتِ السُّمُومِ، ومن العينِ؛ قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»^(٢)؛ أي لَا رُقِيَّةَ أَجْدَى وَأَنْفَعُ مِنَ الرُّقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ، وليس المعنى: أَنَّ غيرَ هَٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الرُّقِيَّةُ؛ بل هي نَافِعَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْرَاضِ.

قوله: «فَإِنْ تَكُنْ»: أي الرُّقَى.

قوله: «مِنْ خَالِصِ الْوَحْيَيْنِ»: أي من الكتاب والسنة، المقصود: أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ خَالِيَةً مِنَ الشَّرْكِ.

قوله: «فَذَٰكَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ وَشَرْعَتِهِ وَذَٰكَ لَا اخْتِلَافَ فِي سُنَنِيَّتِهِ»: فالرُّقَى الْخَالِيَةُ مِنَ الشَّرْكِ مَشْرُوعَةٌ جَائِزَةٌ، وفي «صحيح مسلم»، عن عوف بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»^(٣).



(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٧٠٥)، ومسلم في «الصحيح» (٢٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٠٠).

قال الناظم:

أَمَّا الرُّقَى الْمَجْهُولَةُ الْمَعْنَايِ (١١٥) فَذَاكَ وَسْوَاسٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
وَفِيهِ قَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ أَنَّهُ (١١٦) شَرَكٌ بِلا مَرِيَّةٍ فَاحْذَرْنَهُ
إِذْ كُلُّ مَنْ يَقُولُهُ لَا يَدْرِي (١١٧) لَعَلَّهُ يَكُونُ مُحَضَّصَ الْكُفْرِ
أَوْ هُوَ مِنْ سِحْرِ الْيَهُودِ مُقْتَبَسٌ (١١٨) عَلَى الْعَوَامِ لَبَّسُوهُ فَالْتَبَسْ
فَحَذَرًا ثُمَّ حَذَارٍ مِنْهُ (١١٩) لَا تَعْرِفِ الْحَقَّ وَتَنْأَى عَنْهُ

قال الشارح:

قوله: «أَمَّا الرُّقَى الْمَجْهُولَةُ الْمَعْنَايِ»: الرُّقِيَّةُ إِذَا كَانَتْ بغيرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وبغيرِ الْكَلَامِ
الَّذِي يُفْهَمُ مَعْنَاهُ؛ فَهِيَ مِنَ الرُّقِيَّةِ الْمَمْنُوعَةِ بغيرِ الْمَشْرُوعَةِ.

قوله: « فَذَاكَ وَسْوَاسٌ مِنَ الشَّيْطَانِ »

وَفِيهِ قَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ أَنَّهُ شَرَكٌ بِلا مَرِيَّةٍ فَاحْذَرْنَهُ»

يشير إلى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ»^(١). والرُّقَى
فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الرُّقَى الشَّرِكِيَّةِ؛ لِأَنَّ «أَل» فِيهِ: لِلْعَهْدِ، وَالْمَعْهُودِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ:
هُوَ الرُّقَى الشَّرِكِيَّةِ.

«إِذْ كُلُّ مَنْ يَقُولُهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ»: لَعَلَّ هَذَا الَّذِي يَرْقِي بِهِ «يَكُونُ مُحَضَّصَ الْكُفْرِ».

أَوْ تَكُونُ مُشْتَمِلَةً عَلَى سِحْرٍ، كَمَا قَالَ:

«أَوْ هُوَ مِنْ سِحْرِ الْيَهُودِ مُقْتَبَسٌ عَلَى الْعَوَامِ لَبَّسُوهُ فَالْتَبَسْ»

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السنن» (٣٨٨٣)، وَابْنُ مَاجَهَ فِي «السنن» (٣٥٣٠).

«فَحَذَرًا ثُمَّ حَذَارٍ مِنْهُ»: من الرُّقَى الشَّرَكِيَّةِ «لَا تَعْرِفِ الْحَقَّ وَتَتَأَيَّ عَنْهُ».



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

وَفِي التَّمَائِمِ الْمُعَلَّقَاتِ (١٢٠) إِنْ تَكُ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ
فَالَاخْتِلَافُ وَاقِعٌ بَيْنَ السَّلَفِ (١٢١) فَبَعْضُهُمْ أَجَازُهَا وَالبَّعْضُ كَفُ



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «وَفِي التَّمَائِمِ الْمُعَلَّقَاتِ»: التي تُعَلَّقُ عَلَى الصَّبِيَّانِ، والدَّوَابِ.

قوله: «إِنْ تَكُ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ»: أو كانت من الأدعية النبوية.

قوله: «فَالَاخْتِلَافُ وَاقِعٌ بَيْنَ السَّلَفِ»: من الصحابة فمن بعدهم.

قوله: «فَبَعْضُهُمْ أَجَازُهَا وَالبَّعْضُ كَفُ»: فمن حُجَّةٍ من أجازها: حديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا

وَكِلَ إِلَيْهِ»^(١)، وهذا قد تعلق آيات من القرآن، وقد ورد ذلك عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وروى عن

عبدالله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولم يثبت عنه، وكثيرٌ ممَّن أجازها أجازها بعد نزول البلاء

لا قبله، ورجَّح المانعون مذهبهم بالعمومات: كحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ

لَهُ»^(٢)، وبسَدِّ الذرائع؛ لأنَّه قد يستغل هذا أصحاب الخرافات؛ بل قد استغلَّوه، فصاروا

يضعون شيئاً من القرآن ويخلطونه بغيره من الألفاظ الشريكية، ويقطعونُه أحرفاً، فمن أوجه

المنع: سدُّ هذا الباب، ثم قد يدخلُ بالقرآن بعض الأماكن التي يُنزَّه عنها القرآن، خاصةً إذا

عُلِّقَ عَلَى الْأَطْفَالِ، وقد قال إبراهيم النَّخَعِيُّ: «كانوا -يعني أصحاب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤٠٧٩)، والترمذي في «الجامع» (٢٠٧٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٠٤).

يكرهون التَّمائم كُلَّهَا من القرآن وغير القرآن»^(١).



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

وَإِنْ تَكُنْ مِمَّا سِوَى الْوَحْيَيْنِ (١٢٢) فَإِنَّهَا شِرْكٌ بَغَيْرِ مَيْنٍ
بَلْ إِنَّهَا قَسِيمَةُ الْأَزْلَامِ (١٢٣) فِي الْبُعْدِ عَنْ سِيَمَا أُولِي الْإِسْلَامِ



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «وإن تكن»: أي التَّمائم.

قوله: «مِمَّا سِوَى الْوَحْيَيْنِ»: وقد سبقتُ صُورُ لذلك في أول الفصل.

قوله: «فإنَّهَا شِرْكٌ بَغَيْرِ مَيْنٍ»: وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٢)، وهذا مطابق لما ذكره النَّازِمُ من أنَّهَا من الشُّرْكِ، وقال ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ»^(٣)، دَعَا عليه بِالْأَيْتَمِّ له أَمْرُهُ، وهذا هو الواقع، فإنَّ من يعلقون هذه التَّمائم قد أصابَتْهم هذه الدَّعوة، هم أكثرُ النَّاسِ خَوْفًا وَقَلَقًا، بخلاف المتوكِّلِ على اللَّهِ، المعتمد عليه، فهو مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ؛ لِأَنَّهُ أَوَى إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ، فلم يَلْتَفِتْ قَلْبُهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ جَل جلاله.

قوله: «بَلْ إِنَّهَا»: أي التَّمائم الشَّرِكِيَّة.

قوله: «قَسِيمَةُ الْأَزْلَامِ»: أي شَبِيهَةُ الْأَزْلَامِ فِي الْإِعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، وَالْمُخَالَفَةِ لِلشَّرْعِ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٤٦٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٢٢).

(٣) سبق تخريجه قريباً.

والاستقسام بالأزلام كان يفعله أهل الجاهلية، يطلبون بها معرفة ما قسم لهم من الغيب، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْئٌ﴾ [المائدة: ٣]، وهي حجارة، أو سهام مكتوبٌ على أحدها: افعل، والثاني: لا تفعل، والثالث: غفل، فيعمل بما يخرج له منها، وقد أبدلنا الله تعالى بها خيراً منها: صلاة الاستخارة ودعاءها.

قوله: «**فِي الْبُعْدِ عَنْ سِيَمَا أُولِي الْإِسْلَامِ**»: أي عن صفة أهل الإسلام وعلامتهم، فإن أهل التوحيد أجلُّ شأنًا من أن يتوكلوا على غير الله تعالى، وأن تتلاعب بهم الظنون والأوهام.



قَالَ النَّازِمُ:

«فَصَلِّ: مِنَ الشَّرْكِ: فِعْلٌ مَنْ يَتَبَرَّكُ بِشَجَرَةٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ بُقْعَةٍ، أَوْ قَبْرِ، أَوْ نَحْوِهَا، يَتَّخِذُ ذَلِكَ الْمَكَانَ عِيدًا، وَيَبَيِّنُ أَنَّ الزِّيَارَةَ تَنْقَسِمُ إِلَى سُنِّيَّةٍ، وَبِدْعِيَّةٍ، وَشُرْكِيَّةٍ».

هَذَا وَمِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الشَّرْكِ (١٢٤) مِنْ غَيْرِ مَا تَرَدَّدِ أَوْ شَكَّ مَا يَقْصِدُ الْجُهَّالُ مِنْ تَعْظِيمِ مَا (١٢٥) لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِأَنْ يُعْظَمَ مَا كَمَنْ يَلْذُ بِبُقْعَةٍ أَوْ حَجَرٍ (١٢٦) أَوْ قَبْرِ مَيِّتٍ أَوْ بِبَعْضِ الشَّجَرِ مُتَّخِذًا لِذَلِكَ الْمَكَانِ (١٢٧) عِيدًا كَفِعْلِ عَابِدِي الْأَوْثَانِ



قَالَ السَّارِعُ:

هَذَا فَصْلُ عَقْدِ النَّازِمِ لِمَسْأَلَتَيْنِ:

الْأُولَى: التبرُّك بالأشجار والأحجار ونحوهما، وفيها هذه الأبيات الأربعة.

والثَّانِي: أقسام زيارة القبور، وفيها بقية أبيات الفصل.

«هَذَا وَمِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الشُّرْكِ مَنْ غَيْرَ مَا تَرَدَّدَ أَوْ شَكَّ مَا يَقْصِدُ الْجَهَّالُ مِنْ تَعْظِيمِ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِأَنْ يُعْظَمَ»

ثم ذكر صوراً لذلك فقال:

«كَمَنْ يُلْذِ بِبُقْعَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ قَبْرِ مَيِّتٍ أَوْ بِبَعْضِ الشَّجَرِ مُتَخِذًا لِذَلِكَ الْمَكَانِ عِيْدًا كَفَعَلَ عَابِدِي الْأَوْثَانِ»

بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ حُكْمَ التَّبَرُّكِ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْبُقْعِ وَالْقَبَابِ، وَأَنَّهُ مِنَ الشُّرْكِ.

وَالْتَّبَرُّكُ: طَلَبُ الْبَرَكَةِ، وَالْبَرَكَةُ: كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَدَوَامُهُ، وَالتَّبَرُّكُ يَكُونُ شَرْكَاً أَكْبَرَ، وَيَكُونُ شَرْكَاً أَصْغَرَ.

يَكُونُ شَرْكَاً أَكْبَرَ: إِذَا اعْتَقَدَ الْمُتَبَرِّكُ اسْتِقْلَالَ الْمُتَبَرِّكِ بِهِ بِالتَّأْثِيرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْقَبُورِيُّونَ حِينَ يَتَمَسَّحُونَ بِقُبُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْوَلِيَّ يَسْتَقِلُّ بِإِعْطَاءِ الْبَرَكَةِ.

وَيَكُونُ شَرْكَاً أَصْغَرَ: إِذَا اتَّخَذَ لِلتَّبَرُّكِ سَبَباً لَمْ يَثْبِتْ كَوْنُهُ سَبَباً؛ كَمَنْ يَتَبَرَّكُ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ وَأَبْوَابِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْبَرَكَةَ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ السَّوَارِي سَبَبٌ لِلْبَرَكَةِ.

وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ «الْبَخَارِيِّ» فِي نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهْورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»^(١)، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ الْبَرَكَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَنَةِ؛ كَلِيلَةُ الْقَدَرِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، أَوْ الْأَمْكَنَةِ؛ كَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، أَوْ فِي بَعْضِ الذَّوَاتِ؛ كَنَبِيِّنَا ﷺ، يُتَبَرَّكُ بِذَاتِهِ، وَعَرَقِهِ، وَثِيَابِهِ، وَقَدْ صَحَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ؛ لَكِنَّهُ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ، لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» (٣٥٧٩).

فيه غيره من الصالحين؛ لأنَّ الصحابة ما تبرَّكوا بغيره **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في حياته ولا بعد موته، فلم يتبرَّكوا بأبي بكرٍ ولا بعُمَرَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، وكذلك لم يتبرَّك التابعون بالصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، فلا يُتبرَّك بأثرٍ حَسِيٍّ من آثار الصالحين إلَّا بأثر نبيِّنا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

والتبرك نوعان: مشروع، وممنوع.

فالمشروع: هو التبرُّك بما جعله الله سبباً للبركة.

والممنوع: هو اعتقاد البركة والتماسُها فيما لم يجعله الله سبباً، ثم قد يكون شرّاً أكبر، وقد يكون أصغر، على التفصيل السابق.

قوله: **«لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِأَنْ يُعْظَمَ»**: يخرج به: ما أذن الله تعالى بتعظيمه؛ كتعظيم بيته الحرام بالحج إليه؛ فإنَّ تعظيمه تعظيم لله تعالى الذي أمر بذلك، وليس من أجل تلك البُتعة، وتعظيم ما عظم الله على الوجه الذي أذن الله به هو من تعظيم الله.

قوله: **«مُتَّخِذاً لِذَلِكَ الْمَكَانِ»**: من الأشجار، والأحجار، والقُبور، والبِقاع، ونحوها.

قوله: **«عِيداً»**: يكرَّرُ الذهاب إليه في أوقات معينة من السنة، أو من الشهر، أو من الأسبوع.

قوله: **«كَفَعْلٍ عَابِدِي الْأَوْثَانِ»**: في تعظيم أوثانهم، وتكرارهم زيارتها.



قال الناظم:

ثُمَّ الزِّيَارَةُ عَلَى أَقْسَامٍ (١٢٨) ثَلَاثَةٌ يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ
 فَإِنْ نَوَى الزَّائِرُ فِيمَا أَضْمَرَهُ (١٢٩) فِي نَفْسِهِ تَذْكَرَةً بِالْآخِرَةِ
 ثُمَّ الدُّعَاءُ لَهُ وَلِلْأَمْوَاتِ (١٣٠) بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَّاتِ
 وَلَمْ يَكُنْ شَدَّ الرَّحَالِ نَحْوَهَا (١٣١) وَلَمْ يَقُلْ هُجْرًا كَقَوْلِ الشُّفْهَاءِ
 فَتِلْكَ سُنَّةٌ أَتَتْ صَرِيحَهُ (١٣٢) فِي السُّنَنِ الْمُثَبَّتَةِ الصَّحِيحَةِ
 أَوْ قَصَدَ الدُّعَاءَ وَالتَّوَشُّعَ (١٣٣) بِهِمْ إِلَى الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا
 فَبَدَعَهُ مُحَدَّثَةٌ ضَلَالَةٌ (١٣٤) بَعِيدَةٌ عَنْ هَدْيِ ذِي الرَّسَالَةِ
 وَإِنْ دَعَا الْمَقْبُورَ نَفْسَهُ فَقَدْ (١٣٥) أَشْرَكَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَجَحَدَ
 لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ (١٣٦) صَرْفًا وَلَا عَدْلًا فَيَعْفُو عَنْهُ
 إِذْ كُلُّ ذَنْبٍ مُوشِكُ الْغُفْرَانِ (١٣٧) إِلَّا اتَّخَذَ النَّدَى لِلرَّحْمَنِ



قال الشارح:

قوله: «ثُمَّ الزِّيَارَةُ»: أي للقبور.

قوله: «عَلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ»: سُنَّةٌ، وَبَدْعِيَّةٌ، وَشُرْكِيَّةٌ.

قوله: «إِذَا نَوَى الزَّائِرُ فِيمَا أَضْمَرَهُ فِي نَفْسِهِ تَذْكَرَةً بِالْآخِرَةِ»: نَوَى بزيارة القبور تذكُّرُ

الآخرة، والاعتِظاظُ بأهل القبور، والاعتبارُ بمصارعهم، فإن أصحاب القبور كانوا على ظهر الأرض مثلنا يَغْدُونَ وَيُروِّحُونَ، وَغَدًا نَصِيرُ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَهَذَا يَحْمِلُكَ عَلَى التَّأَهُبِ لِلْمَوْتِ.

تَأَهُبُ لِلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ مِيقَاتُ الْعِبَادِ

وقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُورُوهَا» ^(١) أخرجه مسلم،

زاد الترمذي: «فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» ^(٢).

قوله: «**ثُمَّ الدُّعَاءُ لَهُ**»: أي لنفسه.

قوله: «**وَلِلْأَمْوَاتِ**»: من المسلمين.

قوله: «**بِالْعَفْرِ وَالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَّاتِ**»: وقد كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كما في «صحيح مسلم» يُعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلْحَاقِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ» ^(٣)، هذا دعاء من الزائر لنفسه وللأَمْوَاتِ.

قوله: «**وَلَمْ يَكُنْ شَدَّ الرَّحَالَ نَحْوَهَا**»: لما في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا» ^(٤).

قوله: «**وَلَمْ يَقُلْ هُجْرًا كَقَوْلِ السُّفْهَاءِ**»: الهُجْر: الكلام الباطل، ويدخل في ذلك: كل ممنوعٍ شرعاً؛ كالدعاء بالويل والثبور، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُورُوهَا، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا» ^(٥).

قوله: «**فَتِلْكَ**»: أي الزيارة التي نوى فيها الزائر تذكرة بالآخرة، والدُّعَاءُ له وللأَمْوَاتِ، وَخَلَّتْ مِنْ شَدِّ الرَّحَالِ، ومن قول الهُجْر.

قوله: «**سُنَّةٌ**»: أي طريقة نبوية.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٩٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (١٠٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٩٧٥).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٩٩٥)، ومسلم في «الصحيح» (٨٢٧).

(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧٦٧).

قوله: «أَنْتَ صَرِيحٌ»: أي واضحة ظاهرة.

قوله: «فِي السُّنَنِ الْمُثَبَّتَةِ الصَّحِيحَةِ»: أي في الأحاديث الثابتة الصحيحة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد سبقت الإشارة إليها، ثم انتقل إلى بيان الزيارة البدعية.

قوله: «أَوْ قَصَدَ الدُّعَاءَ وَالتَّوَسَّلَ بِهِمْ»: أي بأصحاب القبور.

قوله: «إِلَى الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا»: أي يدعو الله ويتوسل إليه بالمقبورين، بجَاهِهِمْ، أو ذواتهم، أو نحو ذلك.

قوله: «فَبِدْعَةٍ مُّحَدَّثَةٍ ضَلَالَةٍ»: لِأَنَّهُ وَإِنْ عَبْدَ اللَّهِ وَلَمْ يَصْرِفِ الْعِبَادَةَ لغيره إِلَّا أَنَّهُ عَبْدُهُ بغير ما شرع، فعملُهُ مردود عليه، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، ودعاء الله عند القبور، وتحرِّي الصلاة عندها، والعُكُوف عندها ذريعة مُفضية إلى عبادة المقبور نفسه، وسبب الشرك الذي وقع فيه قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ غُلُوبُهُمْ فِي الصَّالِحِينَ؛ بِالْعُكُوفِ عِنْدَ قُبُورِهِمْ، وَتَصْوِيرِ تَمَاثِيلِهِمْ، حَتَّى آلَ الْأَمْرَ إِلَى أَنْ عَبْدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

ثم انتقل إلى بيان الزيارة الشَّرَكِيَّة.

قوله: «وَإِنْ دَعَا»: الزَّائِر.

قوله: «الْمَقْبُورَ نَفْسَهُ»: سَأَلَهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ مِنْ جَلْبِ خَيْرٍ، أَوْ دَفْعِ شَرٍّ.

قوله: «فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَجَحَدَ»: جَحَدَ حَقَّ اللَّهِ؛ وَهُوَ إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ.

قوله: «لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ»: مِنَ الَّذِي أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

قوله: «صَرَفًا»: أَي نَافِلَةً.

قوله: «وَلَا عَدْلًا»: أَي فَرِيضَةً.

قوله: «فَيَعْفُو عَنْهُ»: لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٦٩٧)، ومسلم في «الصحيح» (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٧١٨).

مِنْهُمْ نَفَقَتْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿ [إبراهيم: ١٨].

قوله: «إِذْ كُلُّ ذَنْبٍ مُّوشِكُ الْغُفْرَانِ»: لَأَنَّهُ تَحْتَ الْمَشِئَةِ.

قوله: «إِلَّا اتَّخَذَ النَّدُّ لِلرَّحْمَنِ»: قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ [المائدة: ٧٢].



قال الناظم:

«فَضْلٌ فِي بَيَانِ مَا وَقَعَ فِيهِ الْعَامَّةُ الْيَوْمَ مِمَّا يَفْعَلُونَهُ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَمَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الشَّرِكِ

الصَّريحِ وَالْغُلُوِّ الْمُفْرِطِ فِي الْأَمْوَاتِ».

- وَمَنْ عَلَى الْقَبْرِ سَرَجًا أَوْقَدَا (١٣٨) أَوْ ابْتَنَى عَلَى الضَّرِيحِ مَسْجِدًا
فَإِنَّهُ مُجَدِّدٌ جَهَارًا (١٣٩) لِسُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى
كَمْ حَذَرَ الْمُخْتَارُ عَنْ ذَا وَلَعَنَ (١٤٠) فَأَعْلَاهُ كَمَا رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ
بَلْ قَدْ نَهَى عَنِ ارْتِفَاعِ الْقَبْرِ (١٤١) وَأَنْ يُزَادَ فِيهِ فَوْقَ الشُّبْرِ
وَكُلُّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ فَقَدْ أَمَرَ (١٤٢) بِأَنْ يُسَوَّى هَكَذَا صَحَّ الْخَبَرُ
وَحَذَرَ الْأُمَّةَ عَنْ إِطْرَائِهِ (١٤٣) فَغَرَّهُمْ إِبْلِيسُ بِاسْتِجْرَائِهِ
فَخَالَفُوهُ جَهْرَةً وَارْتَكَبُوا (١٤٤) مَا قَدْ نَهَى عَنْهُ وَلَمْ يَحْتَنِبُوا
فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ قَدْ غَلَوْا وَزَادُوا (١٤٥) وَرَفَعُوا بِنَاءَهَا وَشَادُوا
بِالشَّيْدِ وَالْأَجُرِّ وَالْأَحْجَارِ (١٤٦) لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ
وَلِلْقَنَادِيلِ عَلَيْهَا أَوْقَدُوا (١٤٧) وَكَمْ لَوَاءٍ فَوْقَهَا قَدْ عَقَدُوا
وَنَصَبُوا الْأَعْلَامَ وَالرَّايَاتِ (١٤٨) وَافْتَنُّوا بِالْأَعْظَمِ الرَّفَاتِ
بَلْ نَحَرُوا فِي سُوحِهَا النَّحَائِرِ (١٤٩) فِعْلَ أُولَى التَّسْيِيبِ وَالْبَحَائِرِ
وَالْتَمَسُوا الْحَاجَاتِ مِنْ مَوْتَاهُمْ (١٥٠) وَاتَّخَذُوا إِلَهُهُمْ هَوَاهُمْ
قَدْ صَادَهُمْ إِبْلِيسُ فِي فِخَاخِهِ (١٥١) بَلْ بَعْضُهُمْ قَدْ صَارَ مِنْ أَفْرَاحِهِ
يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ (١٥٢) بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَبِاللِّسَانِ
فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبَاحَ ذَلِكَ (١٥٣) وَأَوْرَطَ الْأُمَّةَ فِي الْمَهَالِكِ
فَيَا شَدِيدَ الطَّلُولِ وَالْإِنْعَامِ (١٥٤) إِلَيْكَ نَشْكُو مِخْنَةَ الْإِسْلَامِ

﴿ قال الشارح: ﴾

ما ذكره الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ من تقسيم الزيارة إلى سنيّة، وبدعيّة، وشركيّة؛ هو تمهيدٌ لما ذكره هنا من التحذير من صور الشرك والبدع التي تُفعل عند القبور، فما ذكره هنا في هذا الفصل هو المقصود بالذات من ذكر ما قبله.

قوله: «وَمَنْ عَلَى الْقَبْرِ سَرَجًا أَوْقَدًا»: أوقد على القبر سراجًا، أي اتخذ السُرْجَ على القبور.

قوله: «أَوْ ابْتَنَى عَلَى الضَّرِيحِ مَسْجِدًا»: بنى مسجدًا على القبر، ومثله: اتخاذ القبر مسجدًا ولو لم يُبنَ عليه، فمن فعل ذلك فقد ضاهى اليهود والنصارى، وجدّد سنتهم. قوله: «فَإِنَّهُ مُجَدِّدٌ جَهَارًا»: علانيةً.

قوله: «لِسُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»: وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»^(١)، أخرجه البخاري ومسلم.

قوله: «كَمْ حَذَرُ الْمُخْتَارِ عَنْ ذَا»: المذكور في البيت الذي قبله.

قوله: «وَلَعَنَ فَاعِلُهُ كَمَا رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ»: يُشير إلى حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَايِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»^(٢)، رواه أهل السُّنَنِ، وحسَّنه الترمذي، وصحَّح إسناده: أحمد شاكر، في تحقيقه للمسند، وحتى على القول بتضعيفه فإنه يشهد لِلْعَنِ الْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ: حديثُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٣)، واتَّخَذَ الْمَسَاجِدَ عَلَى الْقُبُورِ، واتَّخَذَ السُّرُوجَ عَلَى الْقُبُورِ؛ لا شكَّ أَنَّهُ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٤٥٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٢٠٤٣)، وأبو داود في «السنن» (٣٢٣٦)، والترمذي في «الجامع» (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد في «المسند» (٢٠٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٣٥)، ومسلم في «الصحيح» (٥٣١).

غُلُوَّ فيها يصيرُّها أو ثَانًا تُعبد من دون الله.

قوله: «**كَمْ حَذَرٌ**»: «كَمْ»: للتكثير، يشير إلى كثرة تحذيره **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من اتخاذ القبور مساجد، وفي حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** في الصحيحين أنها قالت: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** طَفِقَ يَطْرُحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»^(١)، في هذه اللحظات التي هي آخر حياته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والتي كان يعالج فيها أمرًا عظيمًا ما كفَّ عن الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك ووسائله، فحياته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كُلُّهَا من أولِّها إلى آخرها دعوةٌ إلى التوحيد، فمن اتَّخذ القبور مساجد؛ كان له نصيبٌ ممَّا قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» فكيف إذا عبد هؤلاء المقبورين؟! لا شكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ وأَغْلَظ.

قوله: «**بَلْ قَدْ نَهَى عَنِ ارْتِفَاعِ الْقَبْرِ** وَأَنْ يُزَادَ فِيهِ فَوْقَ الشُّبْرِ»: كما في «صحيح مسلم» عن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَنَّهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»^(٢).

قوله: «**وَكُلُّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ**»: أي مرتفع.

قوله: «**فَقَدْ أُمِرَ بِأَنْ يُسَوَّى هَكَذَا صَحَّ الْخَبَرُ**»: يشير إلى ما في «صحيح مسلم»: عن أبي الهيثاج الأسدي أَنَّهُ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ أَنْ لَا تَدْعَ تَمَثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا - أي مرتفعًا - إِلَّا سَوَّيْتَهُ» أي سَوَّيْتَهُ بما حوله من القبور بآلٍ يُزَادَ فِيهِ عَلَى شِبْرِ^(٣).

قوله: «**وَحَذَرُ الْأُمَّةِ عَنْ إِطْرَائِهِ**»: وذلك في قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٣٥)، ومسلم في «الصحيح» (٥٣١).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٩٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٩٦٩).

أُطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١)، أخرجه البخاري، والإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه، والغلو، والنصارى غلّوا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأطروه حتى ادّعوا له الإلهية، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إطرائه كما أطرَتِ النصارى ابنَ مريم، ثم قال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ» أي ليس لي من حقِّ الربوبية والعبادة شيء، «إِنَّمَا»: أداة حَصْرٍ، فقطع الطريق على كل نَزْعَةٍ غُلُوٍّ، ثم أمر بالتوسط قال: «فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢)، فهو موصوفٌ بهذين الوصفين، وَصَفُهُ بَأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ فيه رَدٌّ على أهل الغلو الذين جعلوا له شيئاً من صفات الربوبية، أو الألوهية، وَوَصَفُهُ بَأَنَّهُ رَسُولٌ فيه رَدٌّ على أهل الجفاء الذين لا يعزُّونه، ولا يوقِّرونه، فالحقُّ وسطٌ بين طرفين، وهُدًى بين ضلالتين، وحقٌّ بين باطلين، فهو عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبَعُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي حديث عبد الله بن الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود أَنَّهُ قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» -خاف عليهم الغلو-، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ -أي: قولوا بقولكم المعتاد الذي اعتدتموه في خطابكم من غير غُلُوٍّ- وَلَا يَسْتَجْرِيتُكُمُ الشَّيْطَانُ -أي لا يتَّخذكم جَرِيًّا؛ أي رسولاً ووكيلاً في فتح باب الشرِّ على أنفسكم-»^(٣)، هذا ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حماية حِمَى التوحيد، وسدِّه طرق الشرك والغلو، ومعلوم أَنَّهُ ما غَيَّرَ دين الأنبياء بشيءٍ كالغلو في الصالحين.

قوله: «فَعَرَّهْمُ إِبْلِيسُ بِاسْتِجْرَائِهِ»: عَرَّ إِبْلِيسُ أَكْثَرَ الْأُمَّةِ بِاسْتِهْوَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَاسْتِجْرَائِهِ لَهُمْ.

قوله: «فَخَالَفُوهُ»: أي خالف الذين استهواهم الشيطان تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «جَهْرَةً»: علانيةً.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٨٠٦).

قوله: «وَأَزْكَبُوا مَا قَدْ نَهَى عَنْهُ» من الغلو والإطراء «وَلَمْ يَجْتَنِبُوا» نهيًا.

قوله: «فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ»: انظر أيها المؤمن إلى الذين غرهم إبليس فخالفوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما نهاهم عنه.

قوله: «قَدْ غَلَوْا»: في أهل القبور.

قوله: «وَزَادُوا»: في ذلك.

قوله: «وَرَفَعُوا بِنَاءَهَا»: مخالفين بذلك نهْيِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «وَشَادُوا بِالشَّيْدِ»: وهو الجص.

قوله: «وَالْأَجْرُ»: وهو اللبن المحروق.

قوله: «وَالْأَحْجَارُ»: الأحجار المنقشة المزخرفة.

قوله: «لَا سِيِّمًا فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ»: المتأخرة، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَيَقَعُ الشُّرْكُ فِي الْأُمَّةِ، وما أخبر به لا بُدَّ أَنْ يَقَعَ؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ» وَدَوْ الْخَلَصَةِ: طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ^(١)، والأليّات بفتح اللام: جمع أليّة بسكونها، وهي عجيذة الإنسان، واضطراب الأليّات حول ذي الخلصة كناية عن عودة عبادة الأصنام، والطواف حولها، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في حديث ثوبان رضي الله عنه عند أبي داود والترمذي-: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانِ» ^(٢)، وقد وقع كثيرٌ من ذلك؛ فقد بُنيت المشاهد على القبور، وقُصِدَت لقضاء الحاجات، وقُدِّمَت لها النذور، وأقيمت لها الأعياد، وعُبدت من دون الله.

قوله: «فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ قَدْ غَلَوْا وَزَادُوا وَرَفَعُوا بِنَاءَهَا وَشَادُوا

بِالشَّيْدِ وَالْأَجْرَ وَالْأَحْجَارَ لَا سِيِّمًا فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٧١١٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٢٥٢)، والترمذي في «الجامع» (٢٢١٩).

وَلِلْقَنَادِيلِ عَلَيْهَا أَوْقُدُوا: أوقدوا عليها القناديل والسرُج، ووقفوا على ذلك الأوقاف، والعامّة إذا رأوا القبور عليها السرُج والقناديل والبناء المزخرف وقع في قلوبهم من تعظيمها ما يُفضي بهم إلى عبادتها من دون الله والعياذ بالله.

قوله: **«وَكَمْ لَوَاءٍ فَوْقَهَا قَدْ عَقَدُوا»**: تعظيمًا لها.

قوله: **«وَنَصَبُوا الْأَعْلَامَ وَالرَّايَاتِ وَافْتَتَنُوا بِالْأَعْظَمِ الرَّفَاتِ»**: فجعلت هذه الجموع المحتشدة حول القبور تهتفُ بأسماء أموات تفتت عظامهم، وتقطعت أوصالهم، مُعرضين عن دعاء الحيّ الذي لا يموت.

قوله: **«بَلْ نَحْرُوا فِي سُوحِهَا»**: أي في ساحاتها، السّاحة تُجمع على سُوح، وساحات.

قوله: **«النَّحَائِرُ»**: فنحروا لها من دون الله، والله تعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: **«فِعْلَ أُولَى التَّسْيِبِ وَالْبَحَائِرِ»**: من المشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قوله: **«وَالْتَمَسُوا الْحَاجَاتِ مِنْ مَوْتَاهُمْ»**: فقصدوهم لقضاء الحاجات، وكشف الكربات.

قوله: **«وَاتَّخَذُوا إِلَهُهُمْ هَوَاهُمْ»**: اتّبعوا أهواءهم وجعلوها بمنزلة المعبود الذي لا يُخالف؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ أي جعل هواه إلهاً له، ف(إلهه) في الآية مفعول ثانٍ مُقدّم، و(هواه): مفعول أول مؤخر، -أي اتخذ هواه إلهاً له- وهذا هو السبب في عبادة غير الله؛ بل في جميع المعاصي: تقديم الهوى.

قوله: **«قَدْ صَادَهُمْ إِنْ لَيْسَ فِي فِخَاخِهِ»**: التي نصبها لهم، وأنت تقول في كل صباح

ومساء: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهِ»^(١)، في رواية: «وَشَرِّهِ»؛ أي المصيدة.

قوله: «بَلْ بَعْضُهُمْ قَدْ صَارَ مِنْ أَفْرَاحِهِ»: داعين إلى ما يدعو إليه إبليس من تزيين الشرك، وتسميته بغير اسمه.

قوله: «يَدْعُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَبِاللَّسَانِ

فَلَيْتَ شِعْرِي»: ليتني علمت، ليت علمي حاضر.

قوله: «فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبَاحَ ذَلِكَ وَأَوْرَطَ الْأُمَّةَ فِي الْمَهَالِكِ

فَيَا شَدِيدَ الطَّوْلِ وَالْإِنْعَامِ إِلَيْكَ نَشْكُو مِحْنَةَ الْإِسْلَامِ»: «فَيَا شَدِيدَ الطَّوْلِ» أي

الفضل.



(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٣٩٢).

قال الناظم:

«فَصُلِّ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ السَّحْرِ، وَحَدِّ السَّاحِرِ، وَأَنَّ مِنْهُ عِلْمُ التَّنْجِيمِ، وَذِكْرِ عُقُوبَةِ مَنْ صَدَّقَ كَاهِنًا».

وَالسَّحَرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرٌ (١٥٥) لَكِنْ بِمَا قَدَرَهُ الْقَدِيرُ
أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ مَا قَدْ قَدَرَهُ (١٥٦) فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ
وَاحْكُمْ عَلَى السَّاحِرِ بِالتَّكْفِيرِ (١٥٧) وَحَدُّهُ الْقَتْلُ بِلَا نَكِيرِ
كَمَا أَتَى فِي السُّنَّةِ الْمُصَرَّحَةِ (١٥٨) مِمَّا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ
عَنْ جُنْدُبٍ وَهَكَذَا فِي أُثَرِ (١٥٩) أَمْرُ بِقَتْلِهِمْ رُوي عَنْ عُمَرَ
وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ عِنْدَ مَالِكٍ (١٦٠) مَا فِيهِ أَقْوَى مُرْشِدٍ لِلْسَّالِكِ
هَذَا وَمِنْ أَنْوَاعِهِ وَشُعَبِهِ (١٦١) عِلْمُ النُّجُومِ فَادِرٌ هَذَا وَاتَّبِعْهُ
وَحَلِّهِ بِالْوَحْيِ نَصًّا يُشْرَعُ (١٦٢) أَمَّا بِسَحْرِ مِثْلِهِ فَيُمْنَعُ
وَمَنْ يُصَدِّقْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ (١٦٣) بِمَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ الْمُعْتَبَرُ

قال الشارح:

قوله: «وَالسَّحَرُ حَقٌّ»: أي حَقٌّ وجودُهُ، فهو موجودٌ حقيقةً.

قوله: «وَلَهُ تَأْثِيرٌ»: فَمِنْهُ مَا يُمَرِّضُ، وَمِنْهُ مَا يَقْتُلُ، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا حَقِيقَتَهُ، وَقَالُوا: هُوَ تَمْوِيَةٌ وَتَخْيِيلٌ.

قوله: «لَكِنْ بِمَا قَدَرَهُ الْقَدِيرُ»: فهو لا يخرج عن أمر الله الكوني، ليس بمؤثِّرٍ بذاته؛ بل بقضاء الله وإذنيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله: «أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ مَا قَدْ قَدَرَهُ فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ»: هذا البيت

زيادةً بيان، أراد به: أَنَّهُ مرادٌ لله كونًا؛ أي واقعٌ بقدر الله ومشيتته، وليس مرادًا لله شرعًا؛ لأنَّ الله لا يحبُّه ولا يرضاهُ، وهذا البيت زيادةً بيان، وإلَّا فإنه يُفهم من قوله في البيت الذي قبله: «لَكِنْ بِمَا قَدَرَهُ الْقَدِيرُ»: أَنَّ المقصود: الإرادة الكونية لا الشرعية، لأنَّ التقدير لا يكون إلا كونيًا.

قوله: «وَاحْكُمْ عَلَى السَّاحِرِ بِالتَّكْفِيرِ»: قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، كُفر السَّاحِرِ يؤخذ من مواضع من هذه الآية:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ لأنَّهم زعموا أَنَّهُ ثَبَّتَ ملكَهُ بالسَّحَرِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي بتعاطي السَّحَرِ، فدلَّ على أَنَّ تعاطي السَّحَرِ كُفْرٌ.

الموضع الثاني: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقد قال أهل الأصول: إنَّ تعقيب الحكم بوصفٍ مُشعرٍ بالعلية، فالوصف المذكور -وهو تعليم السحر- هو عِلَّةُ الحُكْمِ بالكفر، وهو المسمى في علم الأصول بدلالة الإيحاء والتَّنبية.

الموضع الثالث: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يُحذِّرَانِ مَنْ أراد تعلُّم السحر بأنَّ تعلُّم السَّحَرِ كُفْرٌ، وقد قال ابن جريج فيما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: «لا يجترئ على السحر إلا كافر».

الموضع الرابع: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ المعنى: لقد علم أولئك اليهود أنَّ من استبدل السَّحَرِ بكتاب الله ما له في الآخرة من نصيبٍ من الخير، وهذا الوعيد لم يُطلق إلَّا فيما هو كُفْرٌ، لا بقاء للإيمان معه، فالذي لا نصيب له من الخير في الآخرة؛ هو الكافر، لأنَّ المؤمن يدخل الجنة، وكفى بدخوله الجنة خلأً ونصيبًا من الخير.

الموضع الثامن: - في الآية التي بعدها - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]؛ «ولو»: حرف امتناع يفيد الجزم بعدم وقوع ما بعدها، فهذا نفى لإيمانهم.

فهذه خمسة أدلة تدل على كُفر السَّاحِر من آية: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]، والتي بعدها.

قوله: «وَحَدُّهُ الْقَتْلُ بِلا نَكِيرٍ»: حَدُّ السَّاحِر: القتل بلا نكير.

قوله: «كَمَا أَتَى فِي السُّنَّةِ الْمُصَرَّحَةِ مِمَّا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ

عَنْ جُنْدُبٍ

:«

وهو غير جُنْدُب بن عبد الله البجلي، هو رجلٌ آخر يُقال له: جُنْدُب الخَيْر، قال: قال رسول الله ﷺ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»^(١)، رُوِيَ بِالتَّاء: «ضَرْبُهُ»، وبالهاء: «ضَرْبُهُ»، وكلاهما صحيح المعنى؛ لكن الأول أبلغ؛ لأنَّ التَّنْكِيرَ وصيغة الْوَحْدَةِ «ضَرْبُهُ» يدلَّان على أنَّها ضَرْبَةٌ قَوِيَّةٌ قَاضِيَةٌ، وَصَحَّحَ التِّرْمِذِيُّ وَقَفَّهُ، فهو من قول جُنْدُب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُقال: جُنْدُب: بضم الجيم والدَّال، وَجُنْدَب: بضم الجيم وفتح الدَّال، وَجُنْدَب كَدِرْهُمْ: بكسر الجيم، وفتح الدَّال، وهو في الأصل: ضَرْبٌ مِنَ الْجَرَادِ سُمِّيَ بِهِ.

قوله: «وَهَكَذَا فِي أَثَرِ أَمْرِ بِقَتْلِهِمْ»: أي قتل السَّحَرَةِ.

قوله: «رُوي عَنْ عُمَرَ»: يشير إلى ما أخرجه الشافعي في «مسنده»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، عن بَجَالَةَ أَنَّهُ قال: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ قال: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرٍ»^(٢)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي «زَادَ الْمَعَادَ»، وَأَصْلُهُ فِي الْبُخَارِيِّ.

قوله: «وَصَحَّحَ عَنْ حَفْصَةَ»: بنت عمر بن الخطاب، أمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (١٤٦٠).

(٢) أخرجه الشافعي في «المسند» (ص: ٣٨٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٩٨٢).

قوله: «عِنْدَ مَالِكٍ مَا فِيهِ أَقْوَى مُرْشِدٍ لِلْسَّالِكِ»: وهو ما رواه الإمام مالك في «موطئه» بلاغا: «أَنَّ حَفْصَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتَلَتْ جَارِيَةً لَهَا سَحَرْتَهَا، وَقَدْ كَانَتْ دَبَّرَتْهَا، فَأَمَرَتْ بِهَا فَقُتِلَتْ»^(١)، وهو عند عبدالرزاق وغيره موصولا، وصححه ابن القيم في «زاد المعاد»، وأما أثر جُنْدُبٍ رضي الله عنه الموقوف عليه: فأخرجه عبدالرزاق في «المصنف»، وغيره، قال الإمام أحمد: «عن ثلاثة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وإقامة الحدود ليست لكل أحد، بل هي من صلاحيات ولي الأمر، فهو الذي يحكم فيهم.

قوله: «هَذَا وَمِنْ أَنْوَاعِهِ وَشُعْبِهِ عِلْمُ النُّجُومِ فَادْرِ هَذَا وَانْتَبِهَ»: يقول: من أنواع السحر: علم التنجيم، لما ثبت عند أبي داود من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»^(٢)، وعلم التنجيم: هو النظر في النجوم للاستدلال بها على التأثير، أو التفسير.

التنجيم نوعان: تنجيم التأثير، وتنجيم التفسير.

تنجيم التأثير: هو النظر في النجوم باعتبار تأثيرها في الحوادث الكونية.
تنجيم التفسير: هو النظر في النجوم للاستدلال بحركات سيرها على الجهات والأحوال، يستدل بها على جهة القبلة، أو الأوقات، أو هبوب الرياح، أو دخول الفصول، أو معرفة الطرق؛ ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فهذا كله من الجائز.

وأما تنجيم التأثير فهو ثلاثة أنواع:

الأول: اعتقاد أن للنجوم استقلالاً بالتأثير وتديراً لهذا الكون؛ وهذا كفر أكبر، وهذا دين الصابئة الذين بُعث إليهم إبراهيم عليه السلام.

الثاني: اعتقاد كونها مرشدة إلى الغيب، دالة عليه بائتلافها وافتراقها، يستدل بظهورها

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٢٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٩٠٥)، والترمذي في «الجامع» (٣٧٢٦).

وخفائها، واقترائها واقتراقها على أمور الغيب؛ وهذا كفرٌ أكبر كذلك.

الثالث: اعتقادُ كونها سببًا غير مستقلٍّ بالتأثير، بل هو تابع لقدرة الله؛ فهذا جائز، الشمس -مثلاً- سببٌ في كثير ممَّا يقع على الأرض من إنتاج الثَّمَر، ونمو الكائنات، والقمر سببٌ في حصول المدِّ والجَزَر، فهذا ثابت.

قوله: «**وَحَلُّهُ بِالْوَحْيِ نَصًّا يُشْرَعُ**»: «**وَحَلُّهُ**»: أي حُلُّ السَّحَر عن المسحور، وهو المسمَّى: بالنُّشْرَة، لأنَّه يُنَشَّرُ بها عن المصاب ما أصابه من الدَّاء؛ أي يُكشَف ويُزال.

قوله: «**وَحَلُّهُ بِالْوَحْيِ**»: بالرُّقِيَّة بالقرآن، والدَّعَوَات النبوية، والأذكار من السُّنَّة، ويدخل في ذلك: التَّصَبُّح بسبع تمرات من العَجْوَة، والحِجَامَة، ونحو ذلك من الأدوية التي لا محظور فيها من جهة الشرع، وثبت بالتجربة نفعُها؛ فهذا مشروع.

قوله: «**أَمَّا بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَيُمنَعُ**»: أمَّا حُلُّ السَّحَر عن المسحور بسِحْرِ مثله فيُمنَع، قد ثبت عند أحمد وأبي داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ النَّشْرَةِ فَقَالَ: «هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»^(١)، وقد أخبر الله تعالى أَنَّ السَّاحِرَ لَا يُفْلِحَ حَيْثُ أَتَى، فلا يجوز حُلُّ السَّحَر بِسِحْرِ مثله.

قوله: «**وَمَنْ يُصَدِّقْ كَاهِنًا**»: فيما ادَّعاه من علم الغيب.

قوله: «**فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ الْمُعْتَبَرُ**»: صلى الله عليه وسلم، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم»^(٢)، فيه كُفْرٌ من صدَّق كاهنًا، وعليه: فالكاهن المُدَّعي معرفة الغيب أولى بهذا الحكم، وهذا الحكم -وهو كُفْرٌ من أتى كاهنًا فصَدَّقَهُ- اختلف فيه العلماء، هل هو كفرٌ أكبر، أو أصغر؟ ويدل لكونه أصغر أمران:

الأول: لفظ «مسند الإمام أحمد»: قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٨٦٨)، وأحمد في «المسند» (١٤١٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٩٠٤)، وابن ماجه في «السنن» (٦٣٩).

أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١)، لو كان كفرًا أكبر؛ لم تُقبل صلاته أبدًا.

الآثار: وجودُ الشبهة؛ وهي أَنَّهُ لا يقول: إِنَّ هذا الكاهن يعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ بل يقول: إِنَّهُ يُصَدِّقُهُ في ذلك الغيب الذي أخبرته به الجِنُّ ممَّا سمعته من الملائكة، فخرج عن كونه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فهذه الشبهة تدرأ عنه الكفر الأكبر، ولا شك أَنَّهُ على خطرٍ عظيم، فإن قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عَمَّنْ صَدَّقَ كاهنًا فقد كفر بما أنزل على محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لا شك أَنَّهُ وعيدٌ عظيم.

وقد قرَّرَ أهل العلم: أن إتيان الكُهَّان والعُرَّافين على حالات:

الحالة الأولى: أن يسألهم فقط؛ فهذا لا تُقبل لهم صلاةٌ أربعين ليلة كما في «صحيح مسلم»: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(٢)، وفي «صحيح مسلم» -أيضًا-: أن معاوية بن الحكم السلمي قال للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَأِنْ مِنَّْا رَجُلًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، قَالَ: «فَلَا تَأْتِيهِمْ»^(٣).

الحالة الثانية: أن يسألهم ويصدقهم؛ فهذا قال عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»^(٤)، وسبق بحث نوع الكفر هل هو أكبر، أو أصغر.

الحالة الثالثة: أن يأتيه العالم للإنكار عليه وكشف باطله؛ فهذا مشروع؛ لكنه للعالم لا لغيره، ويشهد له ما في الصحيحين: «أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** انْطَلَقَ فِي رَهْطٍ قَبْلَ ابْنِ صَيَّادٍ»، وفيه: «أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ لَهُ: «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا»، قال ابن صياد: «هُوَ الدُّخُّ»، فقال له رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «اِخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٦٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٥٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٩٠٤)، وابن ماجه في «السنن» (٦٣٩).

(٥) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٠٥٥)، ومسلم في «الصحيح» (٢٩٣٠).

وفي حُكْمِ إتيانهم: مطالعة قنوات السَّحر والشعوذة التي يُلبسُها أصحابها ثوبَ الدين، وَيَغُرُّونَ السُّدُجَ بِفِكَ السَّحَرِ، وجلب الحبيب؛ فهذه القنوات لا تجوز مشاهدتها، ولو قال: أنا أشاهد هذه القنوات للتفرُّج فقط، ولا أصدِّقهم؛ فهذا لا يحل، وهو في حكم إتيان الكاهن والعرَّاف؛ لا تُقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن صدَّقهم؛ انتقل إلى الحالة الثانية التي قال فيها النبي ﷺ: «فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١)، وكذلك ما يوجد في بعض المجلَّات والصفحات والمواقع ما يُسمَّى: بالأبراج، وأنَّ من وُلِدَ في بُرج كذا؛ حصل له كذا رجماً بالغيب، فلا تجوز مطالعتها فضلاً عن اعتقاد صحتها، فدين الإسلام قائمٌ على البيِّنة، لا على الظُّنون والأوهام، ولا مجال فيه لِمُغْرِضٍ أَنْ يَفْسِدَ عَقُولَ النَّاسِ وَقُلُوبَهُمْ، وأنَّ يسلب أموالهم بادِّعاء الغيب.



(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (٣٩٠٤)، وابن ماجه في «السنن» (٦٣٩)

قال الناظم:

«فَصَلُّ يَجْمَعُ مَعْنَى حَدِيثِ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورِ فِي تَعْلِيمِنَا الدِّينَ، وَأَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ: الْإِسْلَامَ، وَالْإِيمَانَ، وَالْإِحْسَانَ، وَبَيَانُ أَرْكَانِ كُلِّ مِنْهَا». اَعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ (١٦٤) فَاحْفَظْهُ وَافْهَمْ مَا عَلَيْهِ ذَا اشْتَمَلُ كَفَاكَ مَا قَدْ قَالَهُ الرَّسُولُ (١٦٥) إِذْ جَاءَهُ يَسْأَلُهُ جَبْرِيلُ عَلَى مَرَاتِبٍ ثَلَاثٍ فَصَّلَهُ (١٦٦) جَاءَتْ عَلَى جَمِيعِهِ مُشْتَمَلَةٌ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ (١٦٧) وَالْكُلُّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَرْكَانٍ

قال الشارح:

قوله: «اعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ فَاحْفَظْهُ وَافْهَمْ مَا عَلَيْهِ ذَا اشْتَمَلُ»: هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح؛ فقول القلب: هو التَّصَدِيقُ وَالْإِيْقَانُ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ، وقول اللسان: النُّطْقُ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل القلب: العمل الصالح الذي يقوم بالقلب؛ من إخلاصٍ، ومحبةٍ، وخوفٍ، ورجاءٍ، وتوكلٍ؛ ونحو ذلك، وعمل اللسان: الأعمال الصالحة التي محلُّها اللسان؛ من تلاوةٍ، وذكرٍ، وصلاةٍ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر، وتعليمٍ للعلم، ونحو ذلك، وعمل الجوارح: ما يقوم بالجوارح من الأعمال الصالحة؛ كالصلاة، والحج.

قوله: «كَفَاكَ مَا قَدْ قَالَهُ الرَّسُولُ إِذْ جَاءَهُ يَسْأَلُهُ جَبْرِيلُ

عَلَى مَرَاتِبٍ ثَلَاثٍ فَصَّلَهُ»:

أي فصل الدين فجعله ثلاث مراتب.

قوله: «جَاءَتْ عَلَى جَمِيعِهِ»: أي على جميع الدين.

قوله: «مُشْتَمِلَةٌ»: لذا قال النبي ﷺ في آخر الحديث: «هذا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

قوله: «الإِسْلَامُ»: بالجَرِّ: هو بدلٌ من «مَرَاتِبَ»، بدل المجرور مجرورٌ مثله، وهو بوصل الهمزة للوزن.

قوله: «الإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ»: الإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ إذا أُطلق أحدهما غيرَ مقترنٍ بالآخر فُسرَّ بالدينِ كُلِّهِ؛ مثلاً: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ الإِسْلَامُ هنا يشمل الدينَ كُلَّهُ، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]؛ الإِيمَانُ هنا يشمل الدينَ كُلَّهُ، أمّا إذا كانا في سياقٍ واحدٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه يُفسَّرُ الإِسْلَامُ بالأعمالِ الظاهرة، والإِيمَانُ بالأعمالِ الباطنة، وأمّا الإِحْسَانُ فهو إتقانُهُمَا؛ إتقانُ الباطنِ والظاهر، وهو أعلى الدرجات، وهذا يوضِّحُه بعضُ أهل العلم بوضع ثلاث دوائر؛ دائرة واسعة داخلها دائرة أضيق منها، داخل هذا دائرة أضيق منها. فالدائرة الصغرى هي الإِحْسَانُ، والأوسع منها هي الإِيمَانُ، والدائرة الأوسع هي الإِسْلَامُ، فيحتاج العبد إلى أن يُحقِّقَ الإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ حتى يصل بعد ذلك إلى درجة الإِحْسَانِ، فإن خرج من الإِحْسَانِ لم يخرج إلى الكفر؛ وإنَّما يخرج منه إلى مرتبة الإِيمَانِ، فإن خرج من الإِيمَانِ كان في مرتبةٍ دونَهُ؛ وهي مرتبة الإِسْلَامِ، فإن خرج من دائرة الإِسْلَامِ فما ثَمَّ إِلَّا الكفر، فعلى هذا؛ كُلُّ مُحْسِنٍ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ، وكُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ، وليس كُلُّ مُؤْمِنٍ مُحْسِنًا، وليس كُلُّ مُسْلِمٍ مُؤْمِنًا.



(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» (٨).

حديث جبريل المشهور:

روى مسلم في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَيْثُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

قال الشارح:

هذا الحديث حديث عظيم اشتمل على شرح الدين كله، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخره: «هذا جبريلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢)، وقد قال القرطبي: «هذا الحديث يصلح أن يُقال له: أُمُّ السُّنَّةِ»، وقد أفرده الشيخ عبدالمحسن العباد - حفظه الله - بشرح في كتاب مستقل

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٨).

سَمَّاهُ: «شرح حديث جبريل في تعليم الدين»، وهذا الحديث أول حديث في «صحيح مسلم»، وحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ»^(١) أول حديث في «صحيح البخاري»، وهذا الفصل قد عقد فيه الناظم معنى حديث جبريل، وفَصَّلَ فيه المراتب الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وبيَّن أركان كُلِّ منها.



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

فَقَدْ أَتَى الْإِسْلَامَ مَبْنِيًّا عَلَى (١٦٨) خَمْسٍ فَحَقَّقَ وَادَّرِ مَا قَدْ نُقِلَا
أَوَّلُهَا الرُّكْنُ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ (١٦٩) وَهُوَ الصَّارِطُ الْمُسْتَقِيمُ الْأَقْوَمُ
رُكْنُ الشَّهَادَتَيْنِ فَانْبُتَّ وَاعْتَصِمَ (١٧٠) بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ
وَتَانِيًّا إِقَامَةُ الصَّلَاةِ (١٧١) وَثَالِثًا تَأْدِيَةُ الزَّكَاةِ
وَالرَّابِعُ الصِّيَامُ فَاسْمَعْ وَاتَّبِعْ (١٧٢) وَالْخَامِسُ الْحَجُّ عَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «فَقَدْ أَتَى الْإِسْلَامَ مَبْنِيًّا عَلَى خَمْسٍ فَحَقَّقَ وَادَّرِ مَا قَدْ نُقِلَا»: وهذه الخمس
بينها حديث جبريل المشهور، وبينها حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين أنه قال: سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٨)، ومسلم في «الصحيح» (١٦).

قوله: «أَوَّلُهَا»: أي أول أركان الإسلام «الرُّكْنُ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ» الذي لا يقوم البناء إلا عليه.

قوله: «الْأَعْظَمُ»: فيه: إشارة إلى أن جميع أركان الإسلام عظيمة.

قوله: «وَهُوَ»: هذا الرُّكن أعظمها.

قوله: «الصِّرَاطُ»: الطريق الواضح.

قوله: «الْمُسْتَقِيمُ»: الذي لا اعوجاج فيه.

قوله: «الْأَقْوَمُ»: الأعدل.

قوله: «رُكْنُ الشَّهَادَتَيْنِ»: وهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله.

قوله: «فَأُثْبِتُ»: على هذا الصراط المستقيم.

قوله: «وَأَعْتَصِمَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى»: أي استمسك بالسبب الأقوى من الدين: وهو لا إله

إلا الله.

قوله: «الَّتِي لَا تَنْقُصُ»: أي لا تنقطع، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: «وَنَانِيًا»: أي من أركان الإسلام الخمسة.

قوله: «إِقَامَةُ الصَّلَاةِ»: أي فعلها على الوجه الأقوم، والصلاة عمود الإسلام، وهي أول

ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

قوله: «وَنَالِثًا نَادِيَهُ الزَّكَاةَ»: أي إعطاؤها مستحقيها، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله؛

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

قوله: «وَالرَّابِعُ الصِّيَامُ فَاسْمَعُ وَاتَّبِعْ»: هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ۚ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، الصيام: هو الإمساك عن المفطرات تعبداً لله تعالى من طلوع الفجر الصادق إلى

غروب الشمس، وفيه الأجر الجزيل، وقد ورد في الحديث الصحيح أن الإنسان يجازى على

عمله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: «إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(١)؛ أي بغير حساب، والصوم صَبْرٌ؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

قوله: «وَالْخَامِسُ الْحَجُّ عَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ»: كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، والحج: قصدُ الكعبة لأداء مناسك الحج، وهو واجبٌ مرةً في العمر؛ قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٢)، وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٣).



(١) أخرجه البخاري في «الصحیح» (٥٩٢٧)، ومسلم في «الصحیح» (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحیح» (١٨١٩)، ومسلم في «الصحیح» (١٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحیح» (١٧٧٣)، ومسلم في «الصحیح» (١٣٤٩).

قال الناظم:

فَتِلْكَ خَمْسَةٌ وَلِلْإِيْمَانِ (١٧٣) سِتَّةُ أَرْكَانٍ بِإِلَّا نُكْرَانِ
 إِيْمَانُنَا بِاللّٰهِ ذِي الْجَلَالِ (١٧٤) وَمَالَهُ مِنْ صِفَةِ الْكَمَالِ
 وَبِالْمَلَائِكِ الْكَرَامِ الْبَرَرَةِ (١٧٥) وَكُتُبِهِ الْمُنْزَلَةِ الْمُطَهَّرَةِ
 وَرُسُلِهِ الْهُدَاةِ لِلْأَنَامِ (١٧٦) مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلَا إِيْهَامِ
 أَوَّلُهُمْ نُوحٌ بِإِلَّا شَكَّ كَمَا (١٧٧) أَنَّ مُحَمَّدًا لَهُمْ قَدْ خَتَمَا
 وَخَمْسَةٌ مِنْهُمْ أَوَّلُو الْعَزْمِ الْأَلَى (١٧٨) فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ وَالشُّوْرَى تَلَا

قال الشارح:

قوله: «فَتِلْكَ خَمْسَةٌ»: الخمسة السابقة هي أركان الإسلام التي بُنيَ عليها:

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله.

الركن الثاني: إقامة الصلاة.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

الركن الرابع: صيام رمضان.

الركن الخامس: حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

قوله: «وَلِلْإِيْمَانِ سِتَّةُ أَرْكَانٍ»: كما سبق في حديث جبريل، هذا موضع بيانها «بِلَا

نُكْرَانٍ».

قوله: «إِيْمَانُنَا بِاللّٰهِ ذِي الْجَلَالِ»: أي ذي العظمة والكبرياء، والإيمان بالله يتضمَّن

الإيمان بوجوده، وبربوبيَّته، وبألوهيَّته، وبأسمائه وصفاته؛ يتضمن الإيمان بوجوده، وبربوبيَّته: أي بإفراده تعالى بأفعاله؛ كالخلق، والرَّزْق، والملك، والتدبير، إلى غير ذلك من معاني الربوبيَّة، وبألوهيَّته: بإفراده بأفعال العباد؛ كالدُّعاء، والخوف، والرجاء، والتوكُّل، وغير ذلك من أنواع العبادة كُلِّها لله لا تُجعل لغيره، وبأسمائه وصفاته: بإثبات ما أثبتته لنفسه،

وأثبتته له رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على ما يليق به **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

قوله: «**وَمَا لَهُ مِنْ صِفَةِ الْكَمَالِ**»: ممَّا جاء في الكتاب والسنة بإثباته لله تعالى كما يليق بجلاله على الوجه الذي بيَّنه الناظم قبل في قوله:

وَكُلُّ مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ أَثْبَتَهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ
أَوْ صَحَّ فِيمَا قَالَهُ الرَّسُولُ فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ
نُمِرُّهَا صَرِيحَةً كَمَا أَتَتْ مَعَ اغْتِقَادِنَا لِمَا لَهُ اقْتَضَتْ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ
بَلْ قَوْلُنَا قَوْلُ أَتَمَّةِ الْهُدَى طُوبَى لِمَنْ بِهِدِيهِمْ قَدْ اهْتَدَى

قوله: «**وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ**»: الكِرَامُ خُلُقًا وَخُلُقًا، والكِرَامُ على الله تعالى.
قوله: «**الْبَرَّةِ**»: الطاهرين ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا، وهم خلقٌ من خلق الله خُلُقُوا من نور، ذَوُو أجنحة، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، منهم الموكَّل بالوحي، ومنهم الموكَّل بالقطر، ومنهم الموكَّل بالموت، ومنهم الموكَّل بالأرحام، ومنهم الموكَّل بالجنة، ومنهم الموكَّل بالنار، وكلهم منقادون لله تعالى، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ ١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وقد سُمِّيَ منهم في الأدلة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ومنكر ونكير، نؤمن بهم جميعًا من سُمِّيَ منهم، ومن لم يُسَمَّ.

قوله: «**وَكُتِبَ الْمُنْزَلَةُ الْمُطَهَّرَةُ**»: المنزلة على رسله، المطهَّرة من كل باطل، والإيمان بالكتب يتضمن الإقرار بكل كتاب أنزله الله تعالى على رسولٍ من رسله، واعتقاد أنها حقٌّ، وأنها منزلةٌ غير مخلوقة، ومنها ما سُمِّيَ: كالقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، ومنها ما لم يُسَمَّ.

قوله: «**وَرُسُلِهِ الْهُدَاةِ لِلْأَنَامِ**»: الهُداة: جمع هادٍ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]،

والمراد: هداية الدلالة والإرشاد، أمّا هداية التوفيق فهي بيد الله؛ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قوله: «**مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلَا إِيْهَامٍ**»: كما قال تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأنَّ نبيَّنَا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أفضل الرسل؛ فالنَّهي عن التفرُّيق - كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] - هو نَهْيٌ عن التفرُّيق في الإيمان؛ كما فعلت اليهود والنصارى بأن آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، كما كفروا بنبيَّنَا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وأيضًا يدخل في التفرُّيق المنهْي عنه: التفرُّيق على وجه التقليل من المُفضَّل عليه، فمن شرط التفرُّيق: ألا يكون على وجه التقليل من المُفضَّل عليه؛ كما في النَّهي عن تفضيله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على يونس بن مَتَّى؛ في الصحيحين: قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(١)، والإيمان بالرسول يتضمن التصديق والإقرار بأنَّ الله تعالى اصطفى من البشر رسلاً يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور، منهم من قُصَّ في القرآن، ومنهم من لم يُقَصَّصْ، والذين سُمُّوا في القرآن خمسة وعشرون، وقد جُمع منهم ثمانية عشر في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأنعام: ٨٣، ٨٤]؛ هؤلاء إلى الآن عشرة، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥]؛ أربعة عشر، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦]؛ هؤلاء ثمانية عشر، قال النَّاظم:

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٤١٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٣٧٦).

فِي {تِلْكَ حُجَّتُنَا} مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرِ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمْ
إِدْرِيسُ هُوْدُ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا
قوله: «وَرُسُلِهِ الْهُدَاةُ لِلْأَنَامِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلَا إِلَهُامٍ
أَوَّلُهُمْ نُوحٌ بِلا شَكٍّ

:«

أول الرُّسل: نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وفي حديث الشفاعة الطويل في «الصحيحين»: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «اتُّبُوا نُوحًا، أَوَّلَ رُسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ»^(١).

قوله: «كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَهُمْ قَدْ خَتَمًا»: خَتَمَ الرُّسل؛ قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبًا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٢).

قوله: «وَحَمْسَةٌ مِنْهُمْ أَوَّلُوا الْعَزْمَ الْأَلَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ وَالشُّورَى تَلَا»: خمسة من الرُّسل هم أولو العزم؛ أي أصحاب الجزم والجِدِّ والصبر، وكلُّ رُسُلِ الله كذلك؛ غير أن هؤلاء الخمسة كانوا أكمل في هذه الصفات؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقد جمعهم آيتان في كتاب الله؛ في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وفي سورة الشورى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣].



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٤٧٦)، ومسلم في «الصحيح» (١٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٢٥٢)، والترمذي في الجامع (٢٢١٩).

قال الناظم:

وَبِالْمَعَادِ اِيْقِنْ بِلَا تَرَدُّدٍ (١٧٩) وَلَا ادَّعَا عِلْمَ بَوَاقَاتِ الْمُوعِدِ
لَكِنَّا نُؤْمِنُ مِنْ غَيْرِ امْتِرَا (١٨٠) بِكُلِّ مَا قَدْ صَحَّ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى
مِنْ ذِكْرِ آيَاتٍ تَكُونُ قَبْلَهَا (١٨١) وَهِيَ عَلَامَاتٌ وَأَشْرَاطٌ لَهَا

قال الشارح:

بعد أن بيّن الناظم رَحِمَهُ اللهُ أركان الإسلام الخمسة، وبيّن أربعة من أركان الإيمان؛ وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، شرع يذكر هنا الركن الخامس؛ وهو الإيمان باليوم الآخر، وهو يتضمن ثلاثة موضوعات رئيسة:

الأول: البرزخ: والبرزخ من خروج الروح إلى نفخة البعث، ومن ذلك: فتنة القبر بسؤال الملكين: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ونعيم القبر وعذابه.

الثاني: يوم القيامة، وهو من البعث إلى دخول الجنة أو النار، ومن ذلك: تطاير الصُّحُفِ، والحوض، والميزان، والصراط، والشفاعة، ونحو ذلك مما يكون في عَرَصات القيامة.

الثالث: الجنة والنار وما فيهما.

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: أشراط الساعة، فهي مقدمات لليوم الآخر، وعلامات على قربهِ، ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ط فَدَّجَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨]، والموفق من رزقه الله تذكّر الدار الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦]، أي أننا خصّصناهم بخصلة عظيمة؛ وهي أننا ملأنا قلوبهم بذكر الدار الآخرة، فكان وقتهم مصروفاً في العمل والاستعداد لها.

قوله: «وَبِالْمَعَادِ»: وهو الرجوع إلى الله تعالى.

قوله: «إِيقِنْ بِلَا تَرَدُّدٍ»: قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

قوله: «وَلَا ادَّعَا عِلْمَ بَوَاقِ الْمَوْعِدِ»: فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَتَى السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي حديث جبريل المشهور: قوله للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١).

قوله: «لَكِنَّا نُوْمِنُ مِنْ غَيْرِ امْتِرَاءٍ»: أي من غير شك.

قوله: «بِكُلِّ مَا قَدْ صَحَّ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى»: **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

قوله: «مِنْ ذِكْرِ آيَاتٍ»: أي علاماتٍ وأَشْرَاطٍ وأمارات.

قوله: «تَكُونُ قَبْلَهَا»: قبل قيام الساعة.

قوله: «وَهِيَ عَلَامَاتٌ وَأَشْرَاطٌ لَهَا»: قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْثَةٌ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، وأشراط الساعة بابٌ عظيمٌ من أبواب الدين، ففي حديث جبريل المشهور حين سأل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم سألَه بعد ذلك عن الساعة وعن أماراتها، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في آخره: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(٢)، انظر كيف ذكر موضوع أشراط الساعة في هذا الحديث العظيم الذي فيه خلاصة الدين، فدلَّ على أنَّه بابٌ عظيمٌ من أبواب الدين، وتحقيق الإيمان بأشراط الساعة هو من تحقيق الإيمان باليوم الآخر.



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٧٧٧)، ومسلم في «الصحيح» (٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٧٧٧)، ومسلم في «الصحيح» (٨) واللفظ لمسلم.

قال الناظم:

وَيَدْخُلُ الْإِيْمَانُ بِالْمَوْتِ وَمَا (١٨٢) مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الْعِبَادِ حُتَمًا
وَأَنَّ كُلًّا مُقْعَدٌ مَسْئُولٌ (١٨٣) مَا الرَّبُّ مَا الدِّينُ وَمَا الرَّسُولُ؟
وَعِنْدَ ذَا يُثَبِّتُ الْمُهَيِّمِينَ (١٨٤) بِثَابِتِ الْقَوْلِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيُوقِنُ الْمُرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكَ (١٨٥) بِأَنَّمَا مَوْرَدُهُ الْمَهَالِكُ

قال الشارح:

قوله: «وَيَدْخُلُ»: أي في الإيمان باليوم الآخر.

قوله: «الْإِيْمَانُ بِالْمَوْتِ»: قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]،
ومن مات فقد قامت قيامته؛ لأنه انتهت علاقته بهذه الحياة، وصار رهيناً بعمله لتلك الحياة
البرزخية تحت الثرى.

قوله: «وَيَدْخُلُ الْإِيْمَانُ بِالْمَوْتِ وَمَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الْعِبَادِ حُتَمًا»: «وَمَا مِنْ بَعْدِهِ» من
البرزخ، وما يكون فيه إلى نفخة البعث، ثم يوم القيامة وما يكون في عَرَصَاتِهَا، إلى أن يستقرَّ
كُلٌّ من الفريقين؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قوله: «وَأَنَّ كُلًّا مُقْعَدٌ مَسْئُولٌ مَا الرَّبُّ مَا الدِّينُ وَمَا الرَّسُولُ؟
وَعِنْدَ ذَا يُثَبِّتُ الْمُهَيِّمِينَ بِثَابِتِ الْقَوْلِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيُوقِنُ الْمُرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكَ بِأَنَّمَا مَوْرَدُهُ الْمَهَالِكُ»

هذه الأبيات الثلاثة فيها إثبات فتنة القبر، وهي سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه،
والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فسرها النبي ﷺ بفتنة القبر، كما في
«البخاري» من حديث البراء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ

أَتَيْ؛ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ^(١)، ومن السنة: حديث البراء الطويل في «المسند» وغيره: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ - وأما غير المؤمن فيقول في الأسئلة الثلاثة - هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ» ^(٢).



قال الناظم:

وَبِاللَّقَا وَالبُعْثُ وَالنُّشُورِ (١٨٦) وَبِقِيَامِنَا مِنَ الْقُبُورِ
غُرْلًا حُفَاةً كَجَرَادٍ مُنْتَشِرٍ (١٨٧) يَقُولُ ذُو الْكُفْرَانِ: ذَا يَوْمٍ عَسِرُ



قال الشارح:

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بقاء الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]؛ أي يَتَّقُونَ ﴿أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].
قوله: «وَالْبُعْثُ وَالنُّشُورُ»: بإعادة الأرواح إلى الأجساد، وهي التي تكون عند النفخة

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٣٦٩).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨٨٣٢) بنحوه.

الثانية في الصور، وحاصل ما في الأحاديث فيما يتعلق بقبض أرواح المؤمنين وما بعد ذلك من النفختين: أَنَّ اللهَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يبعث ريحًا طيبة تقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى في الأرض إلا شرارُ الخلق، ولا يوجد في الأرض من يقول: الله الله، فتبقى حُثَالُهُ لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيؤمر إسرافيلُ بالنَّفخ -وهي النفخة الأولى- فينفخ نفخةً عظيمةً تفزع منها جميع الخلائق، فيفزعون ويُصعقون، وهي نفخة الفزع، ونَفْحَةُ الصَّعَقِ، هي نفخة واحدة، يُقال لها: نفخةُ الفزع، ويُقال لها: نفخة الصَّعَقِ، ثم يبقون على ذلك مدةً قدرها: أربعون؛ كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ^(١)؛ أي أَبَيْتُ أَنْ أَجْزِمَ بِشَيْءٍ فِيهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَطْلَقَ وَلَمْ يَعْيِّنْ، والحديث في الصحيحين، وجاء في بعض الروايات خارج الصحيح: «أنها أربعون سنة»، لكن لم يصحَّ من ذلك شيء، وجاء في «صحيح مسلم» بيان أثرها في حديث عبدالله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أَنَّهُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا»^(٢)؛ اللَّيْتُ: صفحة العنق، وَأَصْغَى: أَمَالَ، والمعنى: أَنَّهُمْ هَكَذَا تَكُونُ هَيْئَتُهُمْ إِذَا نُفِخَتْ نَفْخَةُ الصَّعَقِ، يَمِيلُ الرَّأْسُ إِلَى أَحَدِ الشَّقَيْنِ وَقَدْ مَاتَ صَعَقًا، ثم يمكثون بعد ذلك أربعين كما سبق في حديث: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» فتحلُّلُ أجسامهم، ولا يبقى منها إلا عَجَبُ الذَّنْبِ؛ وهو العظم المستدير في أصل الظهر، «ثُمَّ يُرْسَلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ»^(٣)، وفي الحديث الآخر: «كَمَنِّي الرَّجَالِ»^(٤)، «فَتَبْتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ»^(٥)، هذا الماء إذا أصاب

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٩٣٥)، ومسلم في «الصحيح» (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٩٤٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٩٤٠).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٨٧٤٣).

(٥) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٩٤٠).

العَظْمُ نَبَتٌ مِنْهُ الْجِسْمُ كَمَا يَنْبَتُ النَّبَاتُ، وَيَتَرَكَّبُ الْخَلْقُ مِنْ هَذَا الْعَظْمِ، كَمَا بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَعِيدُهُ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، «فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»^(١)، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «النُّونِيَّةِ»:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِخْرَاجَ الْوَرَى	بَعْدَ الْمَمَاتِ إِلَى الْمَعَادِ الثَّانِي
أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هُمْ تَحْتَهَا	وَاللَّهُ مُقْتَدِرٌ وَذُو سُلْطَانٍ
مَطَرًا غَلِيظًا أَبْيَضًا مُتَابِعًا	عَشْرًا وَعَشْرًا بَعْدَهَا عَشْرَانِ
فَتَظَلُّ تَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَامُ الْوَرَى	وَلُحُومُهُمْ كَمَنَابِتِ الرِّيحَانِ
حَتَّى إِذَا مَا الْأُمُّ حَانَ وَلَادُهَا	وَتَمَحَّضَتْ فَنَفَاسُهَا مُتَدَانِ
أَوْحَى لَهَا رَبُّ السَّمَاءِ فَتَشَقَّقَتْ	فَبَدَا الْجَنَيْنُ كَأَكْمَلِ الشُّبَّانِ
وَتَخَلَّتِ الْأُمُّ الْوُلُودَ وَأَخْرَجَتْ	أَثْقَالَهَا أَثْنَى وَمِنْ ذُكْرَانِ

وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى مَلِيٌّ بِتَقْرِيرِ الْبَعْثِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(٢)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ٤-٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾ [الحج: ١-٢].

قَوْلُهُ: «وَبِقِيَامِنَا مِنَ الْقُبُورِ»: هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَغْلَبِ، الْمَقْصُودُ: أَنَّهُ يَبْعَثُ جَمِيعَ الْخَلْقِ مَنْ كَانَ مَقْبُورًا، وَمَنْ لَمْ يُقْبَرْ؛ بَأَن مَاتَ غَرِيقًا، أَوْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ وَالطَّيُورُ، وَفِي نَسْخَةِ: «وَبِقِيَامِنَا بِنَفْخِ الصُّورِ»، وَالصُّورُ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ عَنْهُ -كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ»-؛ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»^(٤)، وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (٢٩٤٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٦٥٠٧).

فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَقَدْ التَّقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ» قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ رَبَّنَا» ^(١).

غُرْلًا حُفَاءً كَجَرَادٍ مُنْتَشِرٍ يَقُولُ ذُو الْكُفْرَانِ: ذَا يَوْمٍ عَسِرُ

قوله: «غُرْلًا»: غير مختونين.

قوله: «حُفَاءً»: غير متعلين، في الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» ^(٢)؛ حُفَاءً: غير متعلين، عُرَاءَ: غير لابسين، غُرْلًا: غير مختونين، «ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]» ^(٣).

وفي «المسند» و«الأدب المفرد» من حديث عبدالله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيادة: «بُهِمَا» قال: قلنا: وَمَا بُهِمَا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ» ^(٤).

ولما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» ^(٥)، سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في الصحيحين - «قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ» ^(٦).

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٢٤٣)، وابن ماجه في «السنن» (٤٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٣٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٣٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٦٠).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٣٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٦٠).

(٦) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٢٧)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٥٩).

قوله: «كَجَرَادٍ مُنْتَشِرٍ»: يُمُوجُ بعضهم في بعض، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ [القمر: ٦-٨] أي إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ينفخ في الصور نفخة البعث النفخة الثانية، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ ⑥ خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ⑦ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨] وهذا قول الناظم: «يَقُولُ ذُو الْكُفْرَانِ: ذَا يَوْمٍ عَسِرٌ».



قال الناظم:

وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفُضْلِ (١٨٨) جَمِيعُهُمْ عَلَوِيُّهُمْ وَالشُّفْلِي
فِي مَوْقِفٍ يَجِلُّ فِيهِ الْخَطْبُ (١٨٩) وَيَعْظُمُ الْهَوْلُ بِهِ وَالْكَرْبُ
وَأُخْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحَسَابِ (١٩٠) وَانْقَطَعَتْ عَلَائِقُ الْإِنْسَابِ
وَارْتَكَمَتْ سَحَائِبُ الْأَهْوَالِ (١٩١) وَانْعَجَمَ الْبَلِيغُ فِي الْمَقَالِ
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْقِيُومِ (١٩٢) وَافْتَضَّ مِنْ ذِي الظُّلُمِ لِلْمَظْلُومِ
وَسَاوَتْ الْمُلُوكُ لِلْأَجْنَادِ (١٩٣) وَجِيءَ بِالْكِتَابِ وَالْأَشْهَادِ
وَشَهِدَتِ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ (١٩٤) وَبَدَتِ السَّوَوَاتُ وَالْفَضَائِحُ
وَابْتُلِيَتْ هُنَالِكَ السَّرَائِرُ (١٩٥) وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرِ



قال السارح:

قوله: «وَشَهِدَتِ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ»: هذا الضبط لا يستقيم معه الوزن «وَشَهِدَتْ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ» هكذا يكون الوزن مستقيماً أو «وَشَهِدَ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ» كما في

نسخة.

قوله: «وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ»: يوم يفصل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بين الخلائق؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

قوله: «جَمِيعُهُمْ عُلُوِّيُّهُمْ وَالسُّفْلِيُّ»: قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿الواقعة: ٤٩-٥٠﴾.

قوله: «فِي مَوْقِفٍ يَجُلُّ فِيهِ الْخَطْبُ»: يشتدُّ.

قوله: «وَيَعْظُمُ الْهَوْلُ بِهِ وَالْكَرْبُ»: وقد وصف الله تعالى عِظَمَ هول ذلك اليوم في مواضع كثيرة من كتابه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]؛ أي من شدة هولِهِ وكرهِهِ.

قوله: «وَأُخْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ»: الحساب المقصود به: تقرير العباد بأعمالهم، وتذكيرهم بما نسوه منها، وهو نوعان: عرض ومناقشة.

فالعَرْضُ: أن تُعرض على المؤمن أعماله حتى يعرف مِنَّةَ الله عليه في سترِهِ ذنوبَهُ في الدنيا، وعَفْوِهِ عنه في الآخرة، وجاء في صفة العَرْضِ: حديث ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** في الصحيحين: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ، رَبِّ أَعْرِفُ هَكَذَا مَرَّتَيْنِ، فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تُطَوَّى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ» ^(١) هذا العرض.

والمناقشة: هي استقصاء الأعمال صغيرها وكبيرها، والتدقيق في ذلك، وعدم

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٦٨٥)، ومسلم في «الصحيح» (٢٧٦٨).

المسامحة عليها، وأوضح ما يمثل به للمناقشة: حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة -نسأل الله العافية-: العالم الذي طلب العلم ليُقال: عالم، وقرأ القرآن ليُقال: قارئ، وقد قيل، والمجاهد الذي جاهد ليُقال: شجاع، وقد قيل، والمنفق الذي أنفق ليُقال: جواد، وقد قيل -نسأل الله العافية-، جاء فيه: «أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أُنْزِلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ -فيقال له نحو ذلك-، وَيُؤْتَى بِالْمُجَاهِدِ - فيقال له نحو ذلك-»^(١).

قوله: «وَانْقَطَعَتْ عِلَاقَةُ الْأَنْسَابِ»: كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الْأُصُورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قوله: «وَارْتَكَمَتْ»: أي اجتمعت.

قوله: «سَحَابُ الْأَهْوَالِ وَأَنْعَجَمَ الْبَلِيغُ فِي الْمَقَالِ»: أسكت فلم يتكلم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥].
قوله: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ»: ذَلَّتْ وخضعت.

قوله: «لِلْقِيَوْمِ»: قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

قوله: «وَأَقْتَصَرَ مِنْ ذِي الظُّلَمِ لِلْمَظْلُومِ»: أي أخذ للمظلوم حقه من الظالم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «صحيح البخاري»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ»^(٢)، ويوضح ذلك:

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٣٤).

ما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» ^(١) -نسأل الله العافية -.

قوله: «وَسَاوَتْ الْمُلُوكُ لِلْأَجْنَادِ»: أي صار الملوك والرعايا سواء في ذلك الموقف؛ إلا من رحم الله.

قوله: «وَجِيءَ بِالْكِتَابِ»: كتاب الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالْنَبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

قوله: «وَالْأَشْهَادُ»: قال تعالى: ﴿وَحَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]؛ سَائِقٌ يسوقها، وشَهِيدٌ يشهد عليها بما عملت.

قوله: «وَشَهِدَتْ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ»: هذا من عطف التفسير، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٥٨١).

أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠-٢٢﴾، ويوضح ذلك: ما في «صحيح مسلم» عن أنسٍ رضي الله عنه أنه قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَضَحِكْ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضَحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْفًا، فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» (١).

قوله: «وَبَدَتْ»: أي: ظهرت.

قوله: «السَّوَاءُ وَالْفَضَائِحُ»: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٨].
قوله: «وَابْتُلِيَتْ»: أي اختبرت.

قوله: «هُنَالِكَ السَّرَائِرُ»: قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

قوله: «وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرِ»: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۙ ۝١ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۙ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩-١١].



قال الناظم:

وُنْشِرَتْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ (١٩٦) تُؤْخَذُ بِالْيَمِينِ وَالشَّيْءِ الْمَالِ
طُوبَى لِمَنْ يَأْخُذُ بِالْيَمِينِ (١٩٧) كِتَابَهُ بِشَرَى بِخُورِ عَيْنِ
وَالْوَيْلُ لِلْآخِذِ بِالشَّيْءِ الْمَالِ (١٩٨) وَرَاءَ ظَهْرِ لِلْجَحِيمِ صَالِي

قال الشارح:

هذا موقف آخر من مواقف القيامة؛ وهو نشر الصحف وإيتاؤها؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا
الْصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، والبحث في هذا الموضوع مبني على ثبوت كتابة الأعمال في
الدنيا، وهي قضية قطعية دلت عليها جملة من أدلة؛ منها قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، الصحيفة التي تملؤها في الدنيا ذكرها الله في سورة الانفطار:
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ ١٠ كِرَامًا كُنِينٍ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، وصحيفتك في البرزخ ذكرها
الله في السورة التي بعدها؛ في سورة المطففين: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾
[المطففين: ٧]، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وصحيفتك في عرصات
القيامة ذكرها الله في السورة التي بعدها؛ في سورة الانشقاق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ ٧﴾
﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا ۝ ٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، ولما ذكر الكفار
قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ ١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ ١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-
١٢]، ومثلها -أيضا- في سورة الحاقة، لكن في الحاقة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقد
جمع بينهما الناظم في قوله:

وَالْوَيْلُ لِلْآخِذِ بِالشَّيْءِ الْمَالِ وَرَاءَ ظَهْرِ لِلْجَحِيمِ صَالِي

جمع بينهما: بأنه يؤتى كتابه بشماله وراء ظهره، ثم انتقل إلى موقفٍ آخر من مواقف القيامة؛ وهو الوزن.



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا (١٩٩) يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَى مَا عَمِلَ
فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ (٢٠٠) وَمُقَرَّفٍ أَوْبَقَهُ عُذْوَانُهُ



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «وَالْوَزْنُ»: أي لأعمال العباد.

قوله: «بِالْقِسْطِ»: أي بالعدل.

قوله: «فَلَا ظُلْمَ وَلَا يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَى مَا عَمِلَ»: قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ثم بين أن الناس في الميزان على قسمين قال: «فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ»: قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، ومن رجحت حسناته ولو بحسنة واحدة؛ فهو إلى الجنة بلا سابقة عذاب.

قوله: «وَمُقَرَّفٍ أَوْبَقَهُ»: أي أهلكه.

قوله: «عُذْوَانُهُ»: قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا

بِعَايَتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، وهؤلاء هم أهل المحنة والبليّة -نسأل الله العافية-.

وقد بقي قسمٌ ثالث هم أصحاب الأعراف: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ قال الله

تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ومألهم إلى الجنة؛ كما

قال الله تعالى في الآيات نفسها: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، ولابن حزم كتابُ اسمه: «التلخيص لوجوه التخليص»، قال فيه كلمة عظيمة لما ذكر أصحاب الأعراف: «وليتنا نكون من هذه الصفة، فوالله إنها لمن أبعد آمالي التي لا أدري كيف التوصل إليها إلا برحمة الله تعالى، وأما بعملٍ أعلمه مني فلا».

والذي يوزن ثلاثة أشياء:

الأول: الأعمال.

الثاني: صحائف الأعمال.

الثالث: العامل.

يدل لوزن الأعمال قوله صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

ويدل لوزن صحائف الأعمال حديث صاحب البطاقة.

ويدل لوزن العامل قوله صلى الله عليه وسلم في ساقى ابن مسعود رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٢)، ثم انتقل إلى موقف آخر من مواقف القيامة؛ وهو الصراط.



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٧٥٦٣)، ومسلم في «الصحيح» (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٩١).

قال الناظم:

وَيُنْصَبُ الْجِسْرُ بِلا امْتِرَاءٍ (٢٠١) كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْأَنْبَاءِ
يَجُوزُهُ النَّاسُ عَلَى أحوَالٍ (٢٠٢) بِقَدْرِ كَسْبِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ
فَبَيْنَ مُجْتَازٍ إِلَى الْجَنَانِ (٢٠٣) وَمُسْرِفٍ يُكَبُّ فِي النَّيرانِ

قال الشارح:

قوله: «وَيُنْصَبُ الْجِسْرُ»: وهو الصراط، يُنصب على متن جهنم.

قوله: «بلا امْتِرَاءٍ»: بلا شك.

قوله: «كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْأَنْبَاءِ»: من الكتاب والسنة.

دليل الصراط من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، والمقصود بالورود هنا: المرور على الصراط، وليس معناه: دخول جهنم، الورود في اللغة يأتي بمعنى: الإشراف على الشيء دخله أم لم يدخله، من الورود الذي معه دخول في القرآن: قوله تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]؛ أي أدخلهم النار، ومن الورود الذي ليس معه دخول قوله تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهو لم يدخل البئر، وإنما أشرف عليها، فليس معنى الورود في الآية - ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] - الدخول؛ بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «صحيح مسلم»: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»^(١)، فالمقصود بالورود: المرور على الصراط.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٤٩٦).

وقد ورد في الأدلة من صفاته: أَنَّهُ لَا تَثْبِتُ عَلَيْهِ الْأَقْدَامُ وَلَا تَسْتَقَرُّ فِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ»^(١)؛ معنى قوله: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ»: أَنَّهُ لَا تَثْبِتُ عَلَيْهِ الْأَقْدَامُ وَلَا تَسْتَقَرُّ بَلْ تَزَلُّقُ.

وورد من صفاته: أَنَّ عَلَى حَافَتَيْهِ خَطَاطِيفَ وَكَلَالِيبَ وَحَسَكَةَ؛ قَالَ: «عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ»^(٢)؛ الخطاطيف: جمعُ خُطَّافٍ، والكلاليب: جمعُ كَلُوبٍ، وهما بمعنى: الخُطَّاف والكَلُوب: الحديدَةُ المَعْكُوفَةُ الرَّأْسُ يُعَلَّقُ فِيهَا اللَّحْمُ وَتَوْضَعُ فِي النَّوْرِ، يُقَالُ لَهَا: خُطَّافٌ، وَكَلُوبٌ، أَمَّا كَيْفِيَّةُ خَطَاطِيفِ النَّارِ وَكَلَالِيبِهَا فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا -أَجَارَنَا اللَّهُ وَيَاكُم-، وَالْحَسَكَةُ: الشَّوْكُ الصُّلْبُ مِنْ حَدِيدٍ، وَفِي رَوَايَةِ مُسْلِمٍ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ»^(٣).

وورد من صفاته: أَنَّهُ حَادٌّ كَالسَّيْفِ؛ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: «بَلَّغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ»^(٤).

قوله: «يَجُوزُهُ النَّاسُ عَلَى أَحْوَالٍ بِقَدْرِ كَسْبِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ»: يَمُرُّونَ عَلَيْهِ عَلَى أَحْوَالٍ مُتَفَاوِتَةٍ مِنْ حَيْثُ السَّرْعَةِ، وَمِنْ حَيْثُ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ؛ أَمَّا مِنْ حَيْثُ السَّرْعَةِ: فَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَتِهِمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلِمَحِ الْبَصْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَآخَرُهُمْ رَجُلٌ يَتَلَبَّطُ عَلَى بَطْنِهِ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ لِمَاذَا أَبْطَأْتُ بِي؟ فَيَقُولُ: لَمْ أَبْطَأْ بِكَ وَإِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» (٧٤٣٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١٨٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ» (٧٤٣٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١٨٣).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١٩٥).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ» (١٨٣).

وهم متفاوتون - كذلك - من حيث النور والظلمة؛ قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ عَلَى إِنْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً، وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمُهُ، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ، فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصَّرَاطِ وَالصَّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضُ مَزَلَّةٍ فَيَقَالُ: انْجُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ»^(١)، فهذه أحوالهم من حيث النور والظلمة، ثم بيّن نتيجة العبور على الصراط.

قوله: «فَبَيْنَ مُجْتَازٍ إِلَى الْحِنَانِ وَمُسْرِفٍ يُكَبُّ فِي النَّيْرَانِ»: وقد بيّن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنهم على ثلاثة أقسام؛ قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ - أي: مجروح -، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٢)، مكدوس: من تكدّست الأشياء إذا ركب بعضها بعضاً، وفي لفظ: «مَنكُوسٌ»^(٣)؛ أي ساقطٌ على رأسه، وهذه الأقسام الثلاثة جمعها ابن القيم **رَحِمَهُ اللَّهُ** في شطر بيتٍ من «مِيمِيَّتِهِ» قال:

وَحُذِّمَ مَنْ تُقَى الرَّحْمَنُ أَسْبَغَ جُنَّةً لِيَوْمٍ بِهِ تَبْدُو عِيَانًا جَهَنَّمَ
وَيُنْصَبُ ذَاكَ الْحِسْرُ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا فَهَآؤِ وَمَخْدُوشٌ وَنَاجٍ مُسَلَّمٌ



(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٧٤٣٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه في «السنن» (٤٢٨٠).

قال الناظم:

وَالنَّارُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَهُمَا (٢٠٤) مَوْجُودَتَانِ لَا فَنَاءَ لَهُمَا

قال الشارح:

من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالجنة والنار، الجنة: هي الدار التي أعدّها الله تعالى لعباد المؤمنين جزاءً على إيمانهم، وحسن أعمالهم، والنار: الدار التي أعدّها الله عقوبةً للكافرين جزاءً وفقاً على سوء أعمالهم، وقد ذكر الناظم في الجنة والنار ثلاث مسائل كبار:

المسألة الأولى: أنّهما حقٌّ لا ريب فيهما؛ ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصّامت رضي الله عنه أنّه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(١).

المسألة الثانية: أنّهما موجودتان الآن؛ قال الله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ أُعِدَّتْ: فعل ماضٍ، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، والنبي صلى الله عليه وسلم قد رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف؛ قال: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ عُثْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ»^(٢)، الحديث متفقٌ عليه.

المسألة الثالثة: أنّهما باقيتان دائمتان لا تفتيان أبداً، ولا يفنى ما فيهما؛ قال الله تعالى عن المؤمنين في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]، وقال عن الكافرين في النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٠٥٢)، ومسلم في «الصحيح» (٩٠٧).

وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ» ^(١).



﴿١﴾ قَالَ النَّازِمُ:

وَحَوْضُ خَيْرِ الْخَلْقِ حَقٌّ وَبِهِ (٢٠٥) يَشْرَبُ فِي الْأُخْرَى جَمِيعُ حَزْبِهِ



﴿٢﴾ قَالَ الشَّارِعُ:

التَّوَضُّعُ فِي اللُّغَةِ: مَجْمَعُ الْمَاءِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا: مَجْمَعُ الْمَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَضَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَيَرِدُّهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَهُوَ الْمَوْقِفُ الْوَحِيدُ مِنْ مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ، مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ كُلُّهَا ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ؛ إِلَّا الْحَوْضُ فَلَمْ يَرِدْ ذِكْرُهُ صِرَاحَةً فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ بَلَغَتْ الْأَحَادِيثُ فِيهِ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ؛ رَوَاهَا أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ صَحَابِيًّا كَمَا جَمَعَ ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ، وَذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْصَلَهَا إِلَى رَوَايَةِ ثَمَانِينَ صَحَابِيًّا.

وَوُورِدَ فِي الْأَدْلَةِ صِفَاتُ الْحَوْضِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ لَوْنَ مَاءِهِ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ» ^(٢)، وَفِي

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٧٣٠)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٣٠٠).

رواية: «مِنَ الثَّلَجِ»^(١)، وفي رواية: «مِنَ الْوَرِقِ»^(٢)؛ والْوَرِقُ: الفَصَّة، وأنه: «أَبْرَدُ مِنْ الثَّلَجِ»^(٣)، وأن: «رِيحَهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ»^(٤)، وأن طعمه: «أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»^(٥)، وأن: «كِرْزَانُهُ كُنْجُومِ السَّمَاءِ»^(٦)، في رواية: «لَا نَيْتُهُ أَكْثَرُ مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا»^(٧)، وأن: «مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٨)، وأنه: «يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ»^(٩)، وورد في مساحته قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ»^(١٠)، وورد: «عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ»^(١١).

مسألة: ما الفرق بين الحوض والكوثر الذي ذكره الله تعالى في القرآن؟

الجواب: الكوثر أصل الحوض، ومنه يُمدُّ الحوض، هذا فرق.

الكوثر في الجنة، والحوض في عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ.

الكوثر خاصٌّ بِنَبِيِّنا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وأمَّا الحوض: فورد عند الترمذي: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٩٢).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٦١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٧٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٢٩٢).

(٥) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٣٠٠).

(٦) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٩٢).

(٧) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٣٠٠).

(٨) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٤٤٤)، وابن ماجه في «السنن» (٤٣٠٣).

(٩) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٣٠٠).

(١٠) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٩٢).

(١١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٣٠٠).

أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»^(١).

وهذا الفرق الثالث في أَنَّ لكلَّ نبيٍّ حوضًا القول به موقوفٌ على صحة حديث الترمذي.
قوله: «وَحَوْضُ خَيْرِ الْخَلْقِ حَقٌّ وَبِهِ يَشْرَبُ فِي الْأُخْرَى جَمِيعُ حَزْبِهِ»: ويُزَادُ عن الحوض أصناف:

الصف الأول: المرتدُّون: ففي الصحيحين: «إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»^(٢).

الصف الثاني: المبتدعة المُحدِّثون: في الصحيحين: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ»^(٣)، وفيهما كذلك: «لَيَذَاقَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَاقُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيَهُمْ إِلَّا هَلُمَّ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا»^(٤)؛ أي بُعْدًا بُعْدًا.

الصف الثالث: ذكره جمعٌ من أهل العلم: وهم من عظمت جرائمهم، وكبرت ذنوبهم، ذكره ابنُ عبد البرِّ، والقرطبي، وورد ما يدل عليه: ففي «مسند الإمام أحمد»، وصَحَّحَ إسنادهُ محققوه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضُ»^(٥).



(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٣٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٦٢٥)، ومسلم في «الصحيح» (٢٢٩٥).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٤٩).

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤٤٤١).

قال الناظم:

كَذَلِكَ لِوَاءِ حَمْدٍ يُشْرُ (٢٠٦) وَتَحْتَهُ الرُّسُلُ جَمِيعًا تُحْشَرُ



قال الشارح:

يُشِيرُ إِلَى مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»^(١).



(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣١٤٨).

قال الناظم:

كَذَا لَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى كَمَا (٢٠٧) قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا تَكْرُمًا
 مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللَّهِ لَا كَمَا يَرَى (٢٠٨) كُلُّ قُبُورِيٍّ عَلَى اللَّهِ افْتَرَى
 يَشْفَعُ أَوْ لَا إِلَى الرَّحْمَنِ فِي (٢٠٩) فَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ
 مِنْ بَعْدِ أَنْ يَطْلُبَهَا النَّاسُ إِلَى (٢١٠) كُلِّ أُولِي الْعَزْمِ الْهُدَاةِ الْفَضْلَا
 وَثَانِيًا يَشْفَعُ فِي اسْتِفْتَا حِ (٢١١) دَارِ النَّعِيمِ لِأُولِي الْفَلَاحِ
 هَذَا وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ (٢١٢) قَدْ خُصَّتَا بِهِ بِلَا نَكْرَانِ
 وَثَالِثًا يَشْفَعُ فِي أَقْوَامِ (٢١٣) مَا تَوَّأ عَلَى دِينِ الْهُدَى الْإِسْلَامِ
 وَأَوْبَقَتْهُمْ كَثْرَةُ الْأَثَامِ (٢١٤) فَأَدْخَلُوا النَّارَ بِذَا الْإِجْرَامِ
 أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى الْجَنَانِ (٢١٥) بِفَضْلِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَانِ
 وَبَعْدَهُ يَشْفَعُ كُلُّ مُرْسَلٍ (٢١٦) وَكُلُّ عَبْدٍ ذِي صَالِحٍ وَوَلِي
 وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّيِّرَانِ (٢١٧) جَمِيعَ مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ
 فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ يُطْرَحُونَ (٢١٨) فَحَمًّا فَيُخَيَّوْنَ وَيَنْبُتُونَ
 كَأَنَّمَا يَنْبُتُ فِي هَيْئَاتِهِ (٢١٩) حَبُّ حَمِيلِ السَّيْلِ فِي حَافَاتِهِ

قال الشارح:

هذا موقف آخر من مواقف القيامة؛ وهو الشفاعة، والشفاعة: هي التوسط بجلب خير،
 أو دفع شرٍّ، والشفاعة شفاعتان: شفاعَةٌ مثبتة، وشفاعةٌ منفيّة.

فالمثبتة: هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

[البقرة: ٢٥٥].

والمنفية: هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

والمثبتة: هي التي اجتمعت شروطها وهي ثلاثة شروط:

الأول: إذن الله بالشفاعة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الثاني: ورضاه عن الشافع: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

[طه: ١٠٩].

الثالث: ورضاه عن المشفوع له: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

سؤال الشيعي: وقد اجتمعت الشروط الثلاثة في آية من القرآن هي قوله تعالى: ﴿وَكَمْ

مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

[النجم: ٢٦].

والذين يشفعون يوم القيامة يرجعون إلى ثلاثة أصناف:

الأول: الملائكة.

الثاني: النبيون.

الثالث: المؤمنون.

وقد جمعهم حديث واحد: هو قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كما في «صحيح مسلم»: «شَفَعَتِ

الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(١).

قوله: «كَذَا لَهُ»: أي للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

قوله: «الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى»: يوم القيامة، وهي شفاعته في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم،

وسياتي ذكرها قريباً في كلام الناظم إن شاء الله.

قوله: «كَمَا قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا تَكْرُماً»: خَصَّ الله النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بهذه الشفاعة تَكْرُماً

منه **عَزَّ وَجَلَّ** عليه وعلى أمته.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٨٣).

قوله: «مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللَّهِ»: كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، فالشفاعة ملكٌ لله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، فلا تُطلب إلا منه.

قوله: «لَا كَمَا يَرَى كُلُّ قُبُورِيٍّ عَلَى اللَّهِ افْتَرَى»: فيما ينسبه إلى أهل القبور، ويدعوهم من دون الله.

قوله: «يَشْفَعُ أَوَّلًا إِلَى الرَّحْمَنِ فِي فَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَطْلُبَهَا النَّاسُ إِلَى كُلِّ أُولِي الْعَزْمِ الْهُدَاةِ الْفُضَّلَا»:

هذه الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي قال الله تعالى فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهي شفاعته في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام عن الشفاعة، حتى تنتهي إلى نبينا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ولها قصة أخرجها بطولها الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ بِمِ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ااتُّوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّ نَهَائِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: - وذكر نحو مقاتلتهم لأبيهم آدم وذكر مجيئهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وكلهم يذكر ذنبًا إلا عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَانْطَلِقْ، فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشْفَعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى^(١).

قوله: «وَتَانِيَا يَشْفَعُ فِي اسْتِفْتَاَحِ دَارِ النَّعِيمِ لِأُولِي الْفَلَاحِ»: فيشفعُ لأهل الجنة أن يدخلوها، أخرج مسلم في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتِحْ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»^(٢).

قوله: «هَذَا وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ قَدْ خُصَّصَا بِهِ»: أي جعلهما الله خاصتين بنبيينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بِلا نَكَرَانِ».

بقيت شفاعتهُ ثالثةٌ خاصةٌ بنبيينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي شفاعتهُ في عمِّه أبي طالب أن يخففَ عنه العذاب، كما في الصحيحين من حديث العباس رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ - الضحضاح: ما رَقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين؛ أي أَنَّهُ قَرِيبُ الْقَعْرِ لَيْسَ

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٩٧).

عميقاً -، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(١).

قوله: «وَنَالِنَا يَشْفَعُ فِي أَقْوَامٍ
وَأَوْبَقَتْهُمْ كَثْرَةُ الْأَثَامِ
فَأَدْخَلُوا النَّارَ بِذَا الْإِجْرَامِ
بِفَضْلِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَانِ»:

هذه الشفاعة في أقوام دخلوا النار من أهل الإسلام بذنوبهم أن يخرجوا منها، وهي لبنينا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ولغيره؛ كما قال: «وَبَعْدَهُ يَشْفَعُ كُلُّ مُرْسَلٍ وَكُلُّ عَبْدٍ ذِي صَلَاحٍ وَوَلِيٍّ»، فليست خاصةً بنبينا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ وقد دلَّ لها ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال: قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، أَوْ الْحَيَاةِ -شَكَّ مَالِكٌ- -الحياة: المطر، والحياة: قيل له نهر الحياة: لأنه يحيا من انغمس فيه-، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»^(٢)، الْحَبَّةُ: بُرُورُ الصَّحْرَاءِ مما ليس بِقُوَّةٍ، المعنى: أَنَّهُمْ يَخْرَجُونَ بِوَجْهِهِ نَاضِرَةً مَسْرُورَةً، وهذا الذي ذكره الناظم **رَحِمَهُ اللَّهُ** في قوله بعد:

وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّيِّرَانِ جَمِيعَ مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِيْمَانِ
فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ يُطْرَحُونَ فَحَمَّاءُ فَيَحْيَوْنَ وَيَنْبُتُونَ
كَأَنَّمَا يَنْبُتُ فِي هَيْئَاتِهِ حَبُّ حَمِيلِ السَّيْلِ فِي حَافَاتِهِ



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٢٠٨)، ومسلم في «الصحيح» (٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٢)، ومسلم في «الصحيح» (١٨٤).

قال الناظم:

وَالسَّادِسُ الْإِيْمَانُ بِالْأَقْدَارِ (٢٢٠) فَأَيَقِنَنَّ بِهَا وَلَا تُمَارِ
فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ (٢٢١) وَالْكُلُّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُسْتَطَرٌّ



قال الشارح:

قوله: «السَّادِسُ»: أي من أركان الإيمان.

قوله: «الْإِيْمَانُ بِالْأَقْدَارِ»: كما في حديث جبريل المشهور حين سُئِلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عن الإيمان: فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ»، إلى أن قال: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

قوله: «فَأَيَقِنَنَّ بِهَا وَلَا تُمَارِ» فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ: قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

قوله: «وَالْكُلُّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُسْتَطَرٌّ»: قال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾
[القمر: ٥٣]، ولابن القيم كلمة جليلة ذكرها في صدر كتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء
والقدر والحكمة والتعليل»، تلخص لك الكلام في الإيمان بالقضاء والقدر: قال رَحِمَهُ اللَّهُ:
«القدر بحرٌ محيطٌ لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحد من العالمين، والشرع فيه سفينة النجاة،
من ركبها نجا، ومن تخلف عنها فهو من المغرقين».

وَالْإِيْمَانُ بِالْقَدَرِ لَهُ أَرْبَعُ مَرَاتِبٍ:

الأولى: العلم.

الثانية: الكتابة.

الثالثة: المشيئة.

الرابعة: الخلق.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٠)، ومسلم في «الصحيح» (٨).

وقد جمعها الناظم في بيتٍ واحد هو قوله:

عِلْمٌ كِتَابَةٌ مَوْلَانَا مَشِئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينٌ

فلو سُئِلت ما القدر؟ فإنَّك تقول: هو علم الله تعالى بالكائنات، وكتابته لها، ومشئته وخلقها إيَّاها، فالقدر هو هذه المراتب الأربع:

المرتبة الأولى: العلم؛ فنؤمن بأنَّ الله تعالى علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو

كان كيف يكون؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

المرتبة الثانية: الكتابة؛ فنؤمن بأنَّ الله تعالى كتب كل شيء، في «صحيح مسلم» عن

عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ^(١).

وقد جمع هاتين المرتبتين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الحج: ٧٠]؛ هذه مرتبة العلم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]؛ هذه مرتبة الكتابة.

المرتبة الثالثة: المشيئة؛ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

المرتبة الرابعة: الخلق؛ ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

وقد ضلَّ في هذا الباب طائفتان؛ هما القدريّة والجبريّة.

فالقدريّة: نفّوا القدر، فالعبد عندهم هو خالقُ فعله، والجبريّة: غلّوا في إثباته، فالعبد عندهم حرّكته كحركة المرتعش، فهو كالريشة في مهبِّ الريح، ويردُّ على الطائفتين قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ^(٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩].

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]؛ هذا ردُّ على الجبريّة، وكُلُّ فعلٍ رأيته في القرآن مُضافاً إلى العبد فهو ردُّ على الجبريّة؛ لأنَّ فيه إثبات المشيئة للعبد.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٦٥٣).

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] هذا ردُّ على القدرية الذين نفوا القدر.

ومثله قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «اعْمَلُوا فِكُلِّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١).
«اعْمَلُوا»: ردُّ على الجبرية. «فِكُلِّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»: ردُّ على القدرية الذين نفوا القدر.



قال الناظم:

لَا نَوْءَ لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَ وَلَا (٢٢٢) عَمَّا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى حَوْلَا
لَا غَوْلَ لَا هَامَةَ لَا وَلَا صَفْرَ (٢٢٣) كَمَا بَدَأَ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْبَشَرِ



قال الشارح:

مناسبة هذين البيتين للإيمان بالقدر: أنه ذكر فيها ستة أشياء يقتضي الإيمان بالقدر نفيها.

قوله: «لَا نَوْءَ»: أمَّا النَّوءُ: فهو الاعتقادُ في النجوم، بأن يعتقد أن لمطالع النجوم ومغاربها وظهورها وخفائها وسيرها وانتقالها واقترانها وافتراقها تأثيراً في الكون، وفي الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «اتَدُرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(٢)، وقد سبق الكلام عن هذا في الفصل

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٩٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٦٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١٠٣٨)، ومسلم في «الصحيح» (٧١).

الذي عَقَدَهُ في بيان حقيقة السَّحر عند قوله: «هَذَا وَمِنْ أَنْوَاعِهِ وَشُعْبَةٍ عِلْمُ التَّجْوِمِ فَادْرِ هَذَا وَانْتَبِه».

قوله: «لَا عَدْوَى»: العدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، والعدوى التي نفاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية؛ وهي أَنَّها تؤثر بطبعها دون تقدير الله، فهذه هي المنفية، أمَّا أَنَّ العدوى سببٌ من أسباب الإصابة بالمرض فهذا لا يُنكر؛ لذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُورِدُ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(١)، الممرِّضُ صاحب الإبل المراض، والمصحُّ صاحب الإبل الصَّحاح، والمعنى: لا يُورِدُ صاحب الإبل المراض إبله على إبل صاحب الإبل الصَّحاح، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَرٍّ مِنَ الْمَجْدُومِ فَرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»^(٢)، فالمقصود بنفي العدوى: نفي ما كان يعتقد أهل الجاهلية من أَنَّ العدوى مؤثِّرة بذاتها دون تقدير الله تعالى، وحديث: «لَا يُورِدُ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(٣)، وحديث: «فَرٍّ مِنَ الْمَجْدُومِ فَرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»^(٤)، دليلٌ على إثبات كونها سببًا للمرض، وأنَّه ينبغي التوقِّي منها.

قوله: «وَلَا طَيْرٌ»: هذا نفْيٌ لتأثير الطَّيرة، وأصل ذلك: أَنَّ أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطَّيور، فإذا أراد أحدهم سفرًا أو عملاً زجر الطير، فإذا ذهبت يمينًا تفاءل، وإن ذهبت شمالًا تشاءم، ثمَّ إِنَّه توسَّع مدلول التطيُّر حتى صار في الاصطلاح أعمَّ من ذلك؛ فصار يشمل التشاؤم بكل مرئيٍّ، أو مسموعٍ، أو معلومٍ؛ فالتطيُّر بالمرئي: كمن خرج يريد سفرًا فقابل أعور، أو أعرج، فوقع في قلبه أَنَّ هذه السفرة مشؤومة فترك السَّفر، والتطيُّر بالمسموع: كمن خرج يريد سفرًا فسمع نعيق بُومٍ، أو صياح غراب، أو قائلًا يقول لآخر: يا خائب، أو يا خاسر، فعدل عن السَّفر، والتطيُّر بالمعلوم: كمن خرج يريد سفرًا فبلغه خبرٌ سيِّئٌ فتشاءم به

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٧٠٧) بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٢١).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٧٠٧) بنحوه.

ورجع عن قصده.

والطيرة من الشرك الأصغر؛ لأنها تتضمن اتخاذ سببٍ لم يثبت كونه سبباً، وقد نفاهما النبي ﷺ فقال: «وَلَا طِيْرَةَ»^(١)، فدلَّ هذا على بطلانها وعدم تأثيرها، هي توهم ليس له في الحقيقة تأثير، فلا يجوز أن يُعلّق الإنسان أفعاله بأمورٍ موهومة، والشريعة جاءت لتربي المؤمنين على أن يقيموا تصرفاتهم وأعمالهم على البيّنة، وألاً تتلاعب بهم الظنون والأوهام فتتعطل مصالحهم.

قوله: «لَا غُؤْلَ»: وأمّا الغؤل: فهو واحد الغيلان؛ وهو نوعٌ من الجنّ والشياطين تترأى للمسافرين وتغولهم؛ أي تضلّهم عن الطريق، والذي نفاه النبي ﷺ: هو اعتقاد كونها تؤثر بنفسها، فلا يمكن أن تستقلّ بالتأثير على أحدٍ، أو تهلكه دون الله عزّ وجلّ، وليس نفياً لوجودها، وفي هذا: تقوية لنفوس المؤمنين حتى لا تتلاعب بهم الأوهام، ولا تصرفهم عن مصالحهم.

قوله: «لَا هَامَةَ»: وأمّا الهامة بتخفيف الميم: فقليل: إنّها البوم خاصّة، وقد كانوا يتشاءمُون بالبوم ويرونها نذيرٌ شؤم، فمن وقعت البوم عنده، أو على طرف جداره؛ قالوا: دنا أجلُّه، ولا علاقة لهذا الطائر بالآجال؛ وإنّما هو طائرٌ طار فوق على أصل الجدار، فكيف يكون هذا شهادة وفاة في حقّ من وقع الطائر على جدار بيته؟! وكان من خرافات أهل الجاهلية: أن القتل يتخلّق من عظامه طيرٌ يطير في السماء، فيصيح حتى يؤخذ بثأره، ولا يمكن أن ينشأ من عظام الميت طيرٌ يطير.

قوله: «وَلَا صَفَرَ»: وأمّا صَفَرَ فاختلّف في المراد: قيل: داءٌ يصيب البطن، وقيل: هو الشّهر المعروف؛ لأنّ أهل الجاهلية كانوا يتشاءمُون به، وكثيرٌ من الجّهال يتشاءمُون به، وربّما انتهوا عن السّفر فيه، والتشاءمُ بشهر صفر من جنس الطيرة المنهي عنها، وبعض الناس يداوي العلة بعلّة أخرى: فإذا ذكر صَفَرَ قال: صَفَرَ الخير، ولا يصح أن نقول: صَفَرَ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٧٠٧)، ومسلم في «الصحيح» (٢٢٢٠).

الخير، ولا صَفَرَ الشَّرِّ، فلا يصح أن نعلّق بشهرٍ وصفًا لم يُعلِّقه الله تعالى.

قوله: «كَمَا بَدَأَ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْبَشَرِ»: يشير إلى ما في الصحيحين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ»^(١)، وفي رواية لمسلم: «وَلَا نَوَاءً»^(٢)، ولمسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا غَوْلًا»^(٣)، فهذه الخصال الست في نفيها إيمانٌ بالقدر؛ لذا هذان البيتان من تتمة بحث القدر.



❏ قال الناظم:

وَنَالِثٌ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ (٢٢٤) وَتِلْكَ أَعْلَاهَا لَدَى الرَّحْمَنِ
وَهُوَ رُسُوحُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ (٢٢٥) حَتَّى يَكُونَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ



❏ قال الشارح:

قوله: «وَنَالِثٌ»: بعد الإسلام والإيمان.

قوله: «مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ وَتِلْكَ أَعْلَاهَا»: أعلى مراتب الدين «لَدَى الرَّحْمَنِ».

ثم فسّره فقال: «وَهُوَ رُسُوحُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ حَتَّى يَكُونَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ» وقد فسّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحسان في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ تفسيرًا هو من جوامع كلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٤)، أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مرتبة الإحسان على درجتين، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين:

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٧٠٧)، ومسلم في «الصحيح» (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٥٠)، ومسلم في «الصحيح» (٨).

التي هي: مقام المشاهدة، وهو أعلاهما؛ أن تعبد الله كأنك تراه، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال، قد أثار الله قلبه بالإيمان، ونفذت بصيرته في العرفان، حتى صار الغيب عنده كالعيان، كما قال: «وَهُوَ رُسُوحُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ حَتَّى يَكُونَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ».

والآخر: مقام المراقبة؛ بأن يستشعر العبد أن الله تعالى مُطَّلَعٌ عليه، لا يخفى عليه منه شيء، ومن استشعر ذلك أحسن في عمله.

ومقام المراقبة هو الوسيلة الموصلة إلى مقام المشاهدة، فإذا تحقق العبد في عبادته بأن الله تعالى يراه، وأن الله تعالى مُطَّلَعٌ على سِرِّهِ وعلى نِيَّتِهِ، لا يخفى عليه شيء من أمره؛ كان ذلك مرقاةً له إلى مقام المشاهدة؛ بأن يعبد الله كأنه يراه.

﴿ قَالَ النَّاظِمُ: ﴾

«فَصَلِّ فِي كَوْنِ الْإِيمَانِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَأَنْ فَاسِقَ أَهْلِ الْمِلَّةِ لَا يُكْفَرُ بِذَنْبٍ دُونَ الشَّرِكِ إِلَّا إِذَا اسْتَحَلَّهُ، وَأَنَّهُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ».

- إِيمَانُنَا يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ (٢٢٦) وَنَقُصُّهُ يَكُونُ بِالزَّلَّاتِ
وَأَهْلُهُ فِيهِ عَلَى تَفَاضُلٍ (٢٢٧) هَلْ أَنْتَ كَالْمَلَكِ أَوْ كَالرُّسُلِ!
وَالْفَاسِقُ الْمَلَكِيُّ ذُو الْعِصْيَانِ (٢٢٨) لَمْ يُنْفَ عَنْهُ مُطَلَقُ الْإِيمَانِ
لَكِنْ بِقَدْرِ الْفُسْقِ وَالْمَعَاصِي (٢٢٩) إِيمَانُهُ مَا زَالَ فِي انْتِقَاصِ
وَلَا نَقُولاُ إِنَّهُ فِي النَّارِ (٢٣٠) مُخَلَّدٌ بَلْ أَمْرُهُ لِلْبَّارِي
تَحْتَ مَشِيئَةِ الْإِلَهِ النَّافِذَةِ (٢٣١) إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ آخَذَهُ
بِقَدْرِ ذَنْبِهِ وَإِلَى الْجَنَانِ (٢٣٢) يُخْرَجُ إِنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَالْعَرَضُ تَيْسِيرُ الْحِسَابِ فِي النَّبَا (٢٣٣) وَمَنْ يُنَاقِشِ الْحِسَابَ عُذْبًا
وَلَا نُكْفِّرُ بِالْمَعَاصِي مُؤْمِنًا (٢٣٤) إِلَّا مَعَ اسْتِحْلَالِهِ لِمَا جَنَى
وَتُقْبَلُ التَّوْبَةُ قَبْلَ الْغُرْغُرَةِ (٢٣٥) كَمَا أَتَى فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ
أَمَّا مَتَى تُغْلَقُ عَنْ طَالِبِهَا (٢٣٦) فَبَطْلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

هذا فصلٌ عقَّده الناظم في مسائل تتعلق بالإيمان، وقد ذكر ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الداء والدواء»: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَتَّبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ نَحْوَ مِائَةِ خَصْلَةٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

وقد ذكر الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الفصل ستَّ مسائل تتعلق بمباحث

الدين:

المسألة الأولى: كون الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ قوله: «إِيمَانًا يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ وَنَقْصُهُ يَكُونُ بِالزَّلَّاتِ»: يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وقد دلَّ على زيادته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، هذا تصريحٌ بزيادة الإيمان، وقد ورد التصريح بزيادة الإيمان في ستة مواضع من القرآن، وهو كثيرٌ من حيث المعنى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فهذا دليلٌ على زيادة الإيمان؛ لأنَّ زيادة الهدى زيادةٌ في الإيمان، ويدل للنقص قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١)، أخرج مسلم، وفي الصحيحين: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ»^(٢)، وكلُّ دليلٍ يدل على زيادة الإيمان فإنه يدل على نقصه كما نصَّ على ذلك الإمام أحمد **رَحِمَهُ اللَّهُ**، وقال سفيان بن عيينة **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «ليس شيءٌ يزيد إلا وهو ينقص»، وقد صرح بذلك الصحابة؛ فهذا عمير بن حبيب الخطمي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** -وهو من أصحاب الشجرة- قال: «الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله **عَزَّ وَجَلَّ** وحمدناه وسبَّحناه؛ فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا؛ فذلك نقصانه»، وقد أحصى الشيخ عبدالرزاق البدر -حفظه الله- عن عشرة من الصحابة القول بزيادة الإيمان ونقصانه في كتابه «زيادة الإيمان ونقصانه»، وقد نقل الإجماع على زيادة الإيمان ونقصانه: جمع من الأئمة؛ كالإمام أحمد، والبخاري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، في آخرين كثير.

(١) أخرج مسلم في «الصحيح» (٤٩).

(٢) أخرج البخاري في «الصحيح» (٣٠٤)، ومسلم في «الصحيح» (٧٩).

المسألة الثانية: قوله: «وَأَهْلُهُ فِيهِ عَلَى تَفَاضُلٍ هَلْ أَنْتَ كَالْمَلَائِكَةِ أَوْ كَالرُّسُلِ!»: وهي تفاضل أهل الإيمان فيه، فليس إيمان آحاد المسلمين كإيمان الملائكة والرسل؛ «هَلْ أَنْتَ كَالْمَلَائِكَةِ أَوْ كَالرُّسُلِ!»، ويدل لتفاوت أهل الإيمان فيه: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهم هذه الأمة، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ بفعل المحرمات، وترك الواجبات، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ بفعل الواجبات، وترك المحرمات، مع ترك بعض المستحبات، وفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِذِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فهم متفاوتون في إيمانهم، ثم ذكر الله تعالى جزاء الذين أورثهم كتابه، فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]؛ أي يدخلها الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، فهي شاملة للثلاثة؛ لذا قال بعض أهل العلم: «حَقٌّ لهذه الواو -أي واو «يدخلونها»- أن تُكتب بماء العينين»، فوعده الصادق بجنات عدن يشمل جميع المسلمين على تفاوتهم في إيمانهم؛ لذا قال الله **عَزَّوَجَلَّ** بعدها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦]، وكما أن أهل الإيمان متفاوتون في هذه الدار؛ فكذلك هم متفاوتون في الجنة تفاوتاً عظيماً لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى؛ قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ»^(١).

المسألة الثالثة:

قوله: «وَالْفَاسِقُ الْمَلِيٌّ ذُو الْعِصْيَانِ لَمْ يُنْفَ عَنْهُ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ

لَكِنْ بِقَدْرِ الْفُسْقِ وَالْمَعَاصِي إِيْمَانُهُ مَا زَالَ فِي انْتِقَاصٍ»:

وهي أن فاسق أهل القبلة مؤمن ناقص الإيمان، الفسق: هو الخروج من الطاعة، وأهله

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٢٥٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٣١).

فيه متفاوتون، لكنه يرجع إلى درجتين:

الفسق الأكبر: فسق أكبر مُخرج من الملة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ فهذا فسق أكبر مُخرج من الملة.

والفسق الأصغر: فسق أصغر لا يُخرج من الملة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وصاحب هذا الفسق هو الذي يُقال فيه: الفاسق المِلِّي.

إذاً الفاسق من أهل القبلة مؤمن ناقص الإيمان، لا يُنفى عنه مطلق الإيمان بفسقه؛ أي أن المعاصي والكبائر تنقص إيمان صاحبها، ويصير بها فاسقاً؛ لكنه لا يكفر بذلك، فلا يُنفى عنه مطلق الإيمان، ولا يوصف بالإيمان الكامل؛ لكن يُقال: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو يُقال: هو مسلم، أو يُقال: فاسق، ويدخل الفاسق في اسم الإيمان في مقابل الكفر؛ ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ويدخل في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]؛ من أعتق رقيقاً فاسقاً في كفارة عليه فإنه يجزئه ذلك؟ فالمقصود هنا: الإيمان المقابل للكفر، ويدخل الفاسق في نحو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦]، لكن لا يدخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ [المؤمنون: ١-٢]، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [المؤمنون: ١٠-١١]، هذا قول الناظم:

وَالْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ ذُو الْعُصَيَانِ لَمْ يُنْفَ عَنْهُ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ
لَكِنْ بِقَدْرِ الْفُسْقِ وَالْمَعَاصِي إِيْمَانُهُ مَا زَالَ فِي انْتِقَاصٍ

فلا يُعطى الاسم المطلق، ولا يُسلب مطلق الاسم.

مسألة: ما الفرق بين الشيء المطلق، ومطلق الشيء؟

الجواب: الشيء المطلق هو الكامل، أمّا مطلق الشيء فأصله، أي أنّه لا يُعطى الإيمان الكامل، ولا يُسلب أصل الإيمان، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وقد ضلّ في هذا الباب طائفتان:

إحدى طائفتيها: غلاة المرجئة الذين جعلوا الفاسق مؤمناً كاملاً بالإيمان، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

والأخرى: الوعيدية من الخوارج والمعتزلة الذين أخرجوه من دائرة الإيمان، وقالوا: بتخليده في النار في الآخرة، وهذان الموضعان محلّ اتفاق عندهم؛ أنّه خرج من الإيمان، وأنّه مخلّد في النار في الآخرة.

واختلفوا هل يطلق عليه اسم الكفر أو لا؟ فالخوارج قالوا: مرتكب الكبيرة كافر، والمعتزلة قالوا: هو في منزلة بين منزلتين؛ أي أنّه خرج من الإسلام، لكن لا يصفونه بالكفر، بل يقولون: هو في منزلة بين منزلتين، لكن هذه المنزلة ما شفعت له في الآخرة، فهم متفقون مع الخوارج على أنّه خالدٌ مُخلّدٌ في النار -نسأل الله العافية-، وتوسّط أهل السنة والجماعة بين المرجئة والوعيدية وقالوا: هو مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسقٌ بكبيرته.

وأهل الكبائر تتعلّق بهم مسألتان:

إحدى طائفتيها: مسألة الاسم، وهي التي ذكرها الناظم في هذا الموضع.

والأخرى: مسألة الحكم، وهي التي ذكرها في الأبيات الثلاثة بعد ذلك.

قوله: «**وَلَا نَقُولُ إِنَّهُ**»: أي الفاسق المملّي.

قوله: «**مُخَلَّدٌ بَلْ أَمْرُهُ لِلْبَّارِي فِي النَّارِ**»

تَحْتَ مَشِيَّةِ إِلَهِ النَّافِذَةِ

إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ أَخَذَهُ

بِقُدْرٍ ذَنْبِيَّةٍ:

الذي مات عليه، ثم كيف يكون حاله في الآخرة؟ قال: «**وإلى الجنان يُخْرِجُ إِنْ مَاتَ**

عَلَى الْإِيمَانِ، كما دلّت على ذلك أحاديث الشفاعة السابقة، فكلُّ مسلم فمأله إلى الجنة، ولا يبقى في النار إلا أهلها الكفار.

قرّر **رَحْمَةُ اللَّهِ** في هذه الآيات: أنّ مرتكب الكبيرة إن مات ولم يُتّب؛ فهو تحت المشيئة، إن شاء الله عذّبه، وإن شاء عفا عنه؛ لكن لا بُدّ من دخول طائفةٍ من العصاة النّار؛ لصدق حديث الجهنميّين؛ وحديث الشفاعة، وأنّ من أهل الكبائر من يدخل النار فيخرج منها بشفاعة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ومنهم من يخرج بشفاعة الشّافعين، ومنهم من يخرج برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى.

ثم مُرتكب الكبيرة إذا أنفَذَ الله فيه وعيده وأدخله النار، فإنّ دخوله النار دخولٌ مؤقت، فلا يخلد في النار إلا كافر، أمّا عصاة المسلمين فمن شاء الله عذابه؛ فإنّه لا بُدّ أن يخرج من النار إلى الجنة، فإنّه من مات لا يشرك بالله شيئاً - كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - دخل الجنة ابتداءً، أو بعد أمدٍ، فهذه أصولٌ عظيمة؛ أنّ أصحاب الكبائر فُسّاق، فلا يخرجون من الإسلام، فهم مؤمنون ناقصو الإيمان، وأمّا في الآخرة فصاحب الكبيرة تحت المشيئة، إن شاء الله عذّبه، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء الله تعذيبه فإنّه لا يخلد في النار؛ بل مأله إلى الجنة.

قوله: **«وَالْعَرَضُ تَيْسِيرُ الْحِسَابِ فِي النَّبَا وَمَنْ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ عُذْبًا»**: سبق عند قوله: **«وَأُخْضِرُوا لِلْعَرَضِ وَالْحِسَابِ»** أنّ الحساب نوعان: عرضٌ ومناقشة.

وقد أشار في بيته هذا: **«وَالْعَرَضُ تَيْسِيرُ الْحِسَابِ فِي النَّبَا وَمَنْ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ عُذْبًا»**: إلى ما في الصحيحين عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** أنّها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ إِلَّا هَلَكَ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قَالَ: «ذَلِكَ

الْعَرَضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» ^(١)، وفي رواية: «عُذْبٌ» ^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٩٣٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٣٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٨٧٦).

المسألة الخامسة: قوله: «وَلَا تُكْفَرُ بِالْمَعَاصِي مُؤْمِنًا إِلَّا مَعَ اسْتِحْلَالِهِ لِمَا جَنَى»:

وهي أَنَّ فاعل الكبيرة لا يكفر بالمعاصي إِلَّا إذا استحلَّها، والمراد بالمعاصي هنا: ما دون الكفر والشرك، فأهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وجه الدلالة: أَنَّ الله تعالى سَمَّى القاتل أَخًا لولي المقتول، مع أَنَّ قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب، ولو كفر بقتله لانقطعت الأخوة، وقال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]، سَمَّى الطائفتين مؤمنتين مع حصول الاقتتال بينهما، وثبوت البغي من إحداهما.

قوله: «إِلَّا مَعَ اسْتِحْلَالِهِ لِمَا جَنَى»: أي لما ارتكب، ولا يشترط أن يرتكب ما استحلَّه، بل إذا استحلَّ ما حَرَّمَ الله ورسوله كالزنا، وشرب الخمر؛ كفر ولو لم يفعله؛ لأنَّه حينئذ يكون مُكذِّبًا بالكتاب، ومُكذِّبًا بالرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فمن جحد أمرًا مجتمعًا عليه معلومًا من الدين بالضرورة؛ فقد كفر.

المسألة السادسة:

قوله: «وَتُقْبَلُ التَّوْبَةُ قَبْلَ الْغَرَعَةِ كَمَا أَتَى فِي الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ»

أَمَّا مَتَى تُغْلَقُ عَنْ طَائِفَتَيْهَا؟ فَيُطْلَعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا:

وهي متى ينقطع قبول التَّوْبَةِ؟ الله **عَزَّ وَجَلَّ** أمر جميع عباده بالتَّوْبَةِ؛ فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

يُشْتَرَطُ فِي التَّوْبَةِ أَنْ تَكُونَ مَقْبُولَةً ثَلَاثَةَ شُرُوطٍ:

الأول: أن يندم على فعله، وقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» (٤٢٥٢).

الثاني: الإقلاع عن الذنب، ومحلُّ هذا الشرط إذا كان مُتَلَبِّسًا بالذنب، فلو تاب بعد الفراغ من الذنب؛ سقط هذا الشرط وانتقل للشرط الثالث.

الثالث: العزم على ألا يعود.

فإن كان في ذلك الذنب حقٌّ لآدمي؛ لزم استحلاله منه إن أمكن؛ لحديث البخاري السابق: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثُمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ»^(١)، وهذه الشروط في كيفية التَّوْبَةِ، وأمَّا الشرط في زمانها: فهو ما أشار إليه بقوله: «قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ» أي قبل أن يحضره الموت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]؛ أي قبل الغَرْغَرَةِ، ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧-١٨]، وقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ»^(٣)، هذا زمان التَّوْبَةِ في حقِّ كل فرد، وأمَّا في حقِّ عمر الدنيا؛ فتنتقطع التَّوْبَةُ بطلوع الشمس من مغربها؛ لأنها أول آيات القيامة العظام، فإذا طلعت الشمس من مغربها لم يُقبل من الكافر إيمانه، ولا من العاصي توبته؛ لأنَّ الناس يصيرون كلُّهم بإيقانهم بدُنُوِّ يوم القيامة في حكم من عاينَ بأس الله، وفي حكم من حضره الموت، فمن تاب في تلك الحالة؛ لم يُقبل ذلك منه، كما لا يُقبل الإيمان ممَّن عاينَ بأس الله؛ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٥]، وكما لم يُقبل إيمان ممَّن حضره الموت، والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنَّ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقد دلَّت السنة على أن المراد ببعض الآيات هنا: طلوع الشمس من مغربها؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «لَا تَقُومُ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٥٣٧)، وابن ماجه في «السنن» (٤٢٥٣).

السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] (١).

وحاصل ما في البيتين: أنه يُشترط في التوبة: أن تكون في وقت قبولها، وينقطع وقت قبولها بالنسبة لكل أحدٍ بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس: بطلوع الشمس من مغربها.



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٥٠٦)، ومسلم في «الصحيح» (١٥٧).

قال الناظم:

«فَصُلِّ فِي مَعْرِفَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ، وَإِكْمَالِ اللَّهِ لَنَا بِهِ الدِّينَ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ، وَأَنَّ مَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ».

نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ مِنْ هَاشِمٍ (٢٣٧) إِلَى الدَّبِيحِ دُونَ شَكٍّ يَنْتَمِي
أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا مُرْشِدًا (٢٣٨) وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهُدًى
مَوْلَاهُ بِمَكَّةَ الْمُطَهَّرَةِ (٢٣٩) هَجَرْتُهُ لَطِيبَةَ الْمُنَوَّرَةِ
بَعْدَ أَرْبَعِينَ بَدَأَ الْوَحْيُ بِهِ (٢٤٠) ثُمَّ دَعَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
عَشْرَ سِنِينَ أَتَاهَا النَّاسُ اعْبُدُوا (٢٤١) رَبًّا تَعَالَى شَأْنُهُ وَوَحَّدُوا
وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي غَارِ حِرَا (٢٤٢) يَخْلُو بِذِكْرِ رَبِّهِ عَنِ الْوَرَى
وَبَعْدَ خَمْسِينَ مِنَ الْأَغْوَامِ (٢٤٣) مَضَتْ لَعْمُرٍ سَيِّدِ الْأَنْامِ
أَسْرَى بِهِ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الظُّلُمِ (٢٤٤) وَفَرَضَ الْخُمْسَ عَلَيْهِ وَخَتَمَ

قال الشارح:

هذا الفصل خلاصةٌ مُختصرةٌ في التعريف بنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أبياتٌ واضحةٌ سهلة، والناس في قبورهم يُسألون عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيقال للميت فيما يُقال له: من نبيِّك؟ كما سبق في قول الناظم:

وَأَنَّ كُلًّا مُقْعَدٌ مَسْئُولٌ مَا الرَّبُّ مَا الدِّينُ وَمَا الرَّسُولُ؟

والناس في الجواب على قسمين:

أما المؤمن فيقول: نبيِّي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي رواية أنه يُقال له: «مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟» «فَيَقُولُ -المؤمن-: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٧٥٣).

وَأَمَّا غَيْرُهُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي.

قوله: «نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ مِنْ هَاشِمٍ»: هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «إِلَى الذَّبِيحِ»: وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: «دُونَ شَكِّ يَنْتَمِي»: وقد قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في «صحيح مسلم» -: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١).

قوله: «أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا مُرْشِدًا»: كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، والمقصود: هداية الدلالة والإرشاد.

قوله: «وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهُدًى»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قوله: «مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ الْمُطَهَّرَةِ»: فيها وُلِدَ، وبها نشأ، وفيها أُوحي إليه.

قوله: «هَجَرْتُهُ لَطِيبَةَ الْمُنَوَّرَةِ»: حين آذاه قومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «بَعْدَ أَرْبَعِينَ»: سنة من عمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «بَدَأَ الْوَحْيُ بِهِ»: صار نبياً لما نزل عليه صدر سورة اقرأ، وصار رسولاً لما أنزلت عليه سورة المدثر، وهذا معنى قولهم: «نُبِّئَ بِاقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالْمَدَّثِرِ».

قوله: «ثُمَّ دَعَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ»: وهو دين الإسلام.

قوله: «عَشْرَ سِنِينَ أَتَيْهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّاً تَعَالَى شَأْنُهُ وَوَحَّدُوا»: أخذ النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين يدعو إلى التوحيد، والدعوة إلى التوحيد هي المقصود الأعظم

من إرساله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل من إرسال جميع الرسل؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٧٦).

قوله: «وَبَعْدَ خَمْسِينَ مِنْ الْأَعْوَامِ مَضَتْ لِعُمْرِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ

أُسْرَى بِهِ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الظُّلَمِ»:

بعد أن أكمل نبينا ﷺ خمسين سنة أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ

مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ إِلَى السَّمَاءِ.

قوله: «وَفَرَضَ الْخَمْسَ عَلَيْهِ وَحَتَمَ»: فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﷺ وَعَلَى أُمَّتِهِ

الصلوات الخمس وهو في السماء.



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

وَبَعْدَ أَعْوَامٍ ثَلَاثَةِ مَضَتْ (٢٤٥) مِنْ بَعْدِ مِعْرَاجِ النَّبِيِّ وَانْقَضَتْ

أُوزُنَ بِالْهَجْرَةِ نَحْوَ يَثْرَبَا (٢٤٦) مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ لَهُ قَدْ صَحِبَا

وَبَعْدَهَا كُلُّفَ بِالْقِتَالِ (٢٤٧) لِشَيْعَةِ الْكُفْرَانِ وَالضَّلَالِ

حَتَّى أَتَوْا لِلدِّينِ مُنْقَادِينَ (٢٤٨) وَدَخَلُوا فِي السَّلَامِ مُذْعِنِينَ



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «وَبَعْدَ أَعْوَامٍ ثَلَاثَةِ مَضَتْ مِنْ بَعْدِ مِعْرَاجِ النَّبِيِّ وَانْقَضَتْ

أُوزُنَ بِالْهَجْرَةِ نَحْوَ يَثْرَبَا مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ لَهُ قَدْ صَحِبَا»:

بعد الإسراء والمعراج بقي النبي ﷺ ثلاثة أعوام بمكة، ثم أُمر بالهجرة

نحو المدينة النبوية هو وأصحابه ﷺ، بمفارقة المشركين وأوطانهم ليتمكنوا من

إظهار دينهم، وقد كانت الهجرة وعمره ﷺ ثلاث وخمسون سنة؛ بُعث بأربعين

سنة، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة فهاجر، وبقي

بالمدينة عشر سنين.

قوله: «وَبَعْدَهَا كُلُّفَ بِالْقِتَالِ لِشَيْعَةِ الْكُفْرَانِ وَالضَّلَالِ

حَتَّى أَتَوْا لِلدِّينِ مُنْقَادِينَ وَدَخَلُوا فِي السَّلَامِ مُذْعِنِينَ»:

بعد الهجرة أمر نبيُّنا ﷺ بقتال الكفار؛ أي أذن له بالجهاد، لما استقر نبيُّنا ﷺ بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام؛ من الصوم، والحج، والأذان، ومن ذلك: الجهاد، وذلك بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، فكانت بينه ﷺ وبينهم تلك الوقائع المشهورة.

قوله: «حَتَّى أَتَوْا لِلدِّينِ مُنْقَادِينَ وَدَخَلُوا فِي السَّلَامِ»: أي الإسلام.

قوله: «مُذْعِنِينَ»: أي مستسلمين، وأنزل الله على نبيِّه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].



قال الناظم:

وَبَعْدَ أَنْ قَدْ بَلَغَ الرَّسَالَهُ (٢٤٩) وَاسْتَنْقَذَ الْخَلْقَ مِنَ الْجَهَالَةِ
وَأَحْمَلَ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ (٢٥٠) وَقَامَ دِينَ الْحَقِّ وَاسْتَقَامَا
قَبْضَهُ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى (٢٥١) سُبْحَانَهُ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى
نَشْهَدُ بِالْحَقِّ بِإِسْلَامِ (٢٥٢) بِأَنَّهُ الْمُرْسَلُ بِالْكِتَابِ
وَأَنَّهُ بَلَغَ مَا قَدْ أُرْسِلَا (٢٥٣) بِهِ وَكُلَّ مَا إِلَيْهِ أَنْزِلَا



قال الشارح:

بعد أن بلغ نبيُّنا ﷺ الرسالة؛ «وَاسْتَنْقَذَ الْخَلْقَ مِنَ الْجَهَالَةِ»: من الشرك وما دونه.

قوله: «وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ»: قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قوله: «وَقَامَ دِينُ الْحَقِّ وَاسْتَقَامَا»: ظهر هذا الدين على الدين كله.

قوله: «قَبَضَهُ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»: في أعلى الجنان.

قوله: «نَشْهَدُ بِالْحَقِّ بِلَا أَرْتِيَابٍ»: بلا شك.

قوله: «بِأَنَّهُ الْمُرْسَلُ بِالْكِتَابِ»: بالقرآن.

قوله: «وَأَنَّهُ بَلَغَ مَا قَدْ أُرْسِلَا بِهِ وَكُلُّ مَا إِلَيْهِ أُنْزِلَا»: «وَكُلُّ»: معطوف على مفعول «بَلَغَ»، نشهد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، ونسأل الله أن يجزيه عنا أفضل ما جزي نبيا عن أمته، ورسولا عمن أرسل إليه، ونسأله سبحانه أن يُحيينَا على سنته، ويميتنَا على ملته، وأن يحشرنا تحت لوائه، وأن يبعثنا في زمرته، وأن يسقينا من حوضه شربة لا نظما بعدها أبداً.



قَالَ النَّاظِمُ:

وَكُلُّ مَنْ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ ادَّعَى (٢٥٤) نُبُوَّةَ فَكَاذِبٍ فِيمَا ادَّعَى
فَهُوَ خَتَامُ الرُّسُلِ بِاتِّفَاقٍ (٢٥٥) وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ



قَالَ الشَّارِعُ:

قوله: «وَكُلُّ مَنْ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ ادَّعَى نُبُوَّةَ فَكَاذِبٍ فِيمَا ادَّعَى
فَهُوَ خَتَامُ الرُّسُلِ بِاتِّفَاقٍ»:

فلا نبى بعده، ومن باب أولى: أنه لا رسول بعده؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ

مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١)، وليس المراد بالحديث: من ادَّعى النبوة مطلقاً فإنَّهم يزيدون على ثلاثين؛ بل لا يُحصون كثرة؛ وإنَّما المراد: من قامت له شوكة، وكثُر أتباعه، واشتهر بين الناس.

قوله: «وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ»: نبينا ﷺ هو أفضل الأولين والآخرين، وسيد ولد آدم أجمعين ﷺ، قال القاضي عياض في «الشفاء»: «لا خلاف أنه ﷺ أَكْرَمُ الْبَشَرِ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً، وَأَقْرَبُهُمْ زُلْفَى»، قال: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جَدًّا»^(٢)، انتهى كلامه.



(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٢١٩).

(٢) ينظر: «الشفاء في تعريف حقوق المصطفى» (١/٣٢٣).

ذكر الناظم رحمه الله في الفصل السابق خلاصة مختصرة في التعريف بنبينا صلى الله عليه وسلم، ثم عقد فصلاً في ذكر مُعتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة رضي الله عنهم، وبذكر الصحابة تترين المجالس، والآيات والأحاديث في فضلهم كثيرة مستفيضة، وسيشير الناظم رحمه الله إلى شيء من ذلك.



قال الناظم:

«فَصْلٌ: فِيمَنْ هُوَ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ بَعْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِكْرُ الصَّحَابَةِ بِمَحَاسِنِهِمْ، وَالْكَفُّ عَنْ مَسَاوِيهِمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»

وَبَعْدَهُ الْخَلِيفَةُ الشَّافِقُ (٢٥٦) نِعَمَ نَقِيبُ الْأُمَّةِ الصَّدِيقُ
ذَاكَ رَفِيقُ الْمُصْطَفَى فِي الْغَارِ (٢٥٧) شَيْخُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَهُوَ الَّذِي بِنَفْسِهِ تَوَلَّى (٢٥٨) جِهَادَ مَنْ عَنِ الْهُدَى تَوَلَّى



قال الشارح:

قوله: «وَبَعْدَهُ الْخَلِيفَةُ الشَّافِقُ»: أي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخليفة الشفيق الموصوف بالشفقة على الأمة، وفي الحديث: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ»^(١).
قوله: «نِعَمَ نَقِيبُ الْأُمَّةِ الصَّدِيقُ»: النقيب: عريفُ القوم وأفضلهم، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأمة.

قوله: «ذَاكَ رَفِيقُ الْمُصْطَفَى فِي الْغَارِ»: قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٠].
قوله: «شَيْخُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ»: خيرُهم، وأفضلهم، ومقدمهم رضي الله عنه وعنهم

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٧٩٠)، وابن ماجه في «السنن» (١٥٤).

أجمعين.

قوله: «وَهُوَ الَّذِي بِنَفْسِهِ تَوَلَّى جِهَادَ مَنْ عَنِ الْهُدَى تَوَلَّى»: لما كفر من كفر من العرب بعد وفاة النبي ﷺ كفى الله المسلمين أمرهم ونصر دينه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.



قال الناظم:

ثانيه في الفضلِ بلا اَرتيابِ (٢٥٩) الصَّادِعُ النَّاطِقُ بِالصَّوَابِ
أعني به الشَّهْمَ أَبَا حَفْصِ عُمَرُ (٢٦٠) مَنْ ظَاهَرَ الدِّينَ الْقَوِيمَ وَنَصَرَ
الصَّارِمُ الْمُنْكَي عَلَى الْكُفَّارِ (٢٦١) وَمُوسِعُ الْفُتُوحِ فِي الْأَمْصَارِ



قال الشارح:

قوله: «ثانيه في الفضل»: أي: أفضل الأمة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو ثانيه في الفضل، وفي الخلافة أيضًا.
قوله: «بلا اَرتياب»: أي: بلا شك.

قوله: «الصَّادِعُ»: بالحق، الذي لا يخاف في الله لومة لائم، فهو الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وفي الحديث: «وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ»^(١).

قوله: «النَّاطِقُ بِالصَّوَابِ»: كما قال النبي ﷺ -عند الترمذي-: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ؛ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٧٩٠)، وابن ماجه في «السنن» (١٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٦٨٢).

قوله: «أَعْنِي بِهِ الشَّهْمُ»: معنى الشَّهْم: الذَّكِي الفؤاد المتوقِّد.

قوله: «الصَّارِمُ»: الصَّارِم: السيف القاطع.

قوله: «الْمُنْكِى عَلَى الْكُفَّارِ»: من النِّكَاية؛ وهي القتل والإثخان.

قوله: «وَمُوسِعُ الْفُتُوحِ فِي الْأَمْصَارِ»: فكَمَّل فتوح بلاد الروم بعد اليرموك، ثم بلاد

فارس، حتَّى مَزَقَ الله به ملكهم كلَّ ممزَّق، ثم أوغل في بلاد الترك.



قَالَ النَّازِمُ:

ثَالِثُهُمْ عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ (٢٦٢) ذُو الْحِلْمِ وَالْحَيَا بِغَيْرِ مَيْنِ
بَحْرُ الْعُلُومِ جَامِعُ الْقُرْآنِ (٢٦٣) مِنْهُ اسْتَحْتِ مَلَائِكُ الرَّحْمَنِ
بَايَعَ عَنْهُ سَيِّدُ الْأَكْوَانِ (٢٦٤) بِكَفِّهِ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ



قَالَ الشَّارِعُ:

قوله: «ثَالِثُهُمْ»: في الفضل والخلافة: عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «ذُو النُّورَيْنِ»: قيل له: ذو النورين؛ لأنَّه تزوَّج بنتَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقيةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما توفيت تزوَّج أختها أمَّ كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولم يتَّفَق ذلك لغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «ذُو الْحِلْمِ»: كان موصوفاً بالحلم، مشهوراً به.

قوله: «وَالْحَيَا»: وفي الحديث: «وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ» ^(١).

قوله: «بَحْرُ الْعُلُومِ»: العلم بالقرآن، والفهم التامُّ له، حتَّى إنَّه كان يقوم بالقرآن في ركعةٍ

واحدة.

قوله: «جَامِعُ الْقُرْآنِ»: لما خشي الاختلاف في القرآن والخصام فيه، جمع القرآن، قال

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٧٩٠)، وابن ماجه في «السنن» (١٥٤).

ابن العربي في «العواصم من القواصم»: «تلك حسنة العظمى، وخصلته الكبرى، فقد حسم الله مادة الخلاف، وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه».

قوله: «مِنْهُ اسْتَحْتِ مَلَائِكُ الرَّحْمَنِ»: كما في «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخْذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَتْ وَسَوَّيْتُ ثِيَابَكَ فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»^(١).

قوله: «بَايَعَ عَنْهُ سَيِّدُ الْأَكْوَانِ بِكَفِّهِ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ»: لما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة زائرًا للبيت، بعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب؛ وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، ولم يكن أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لذلك أرسله، فاحتبست قريش عثمان عندها، فبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده اليمنى - كما في «صحيح البخاري»: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»، فَضْرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «هَذِهِ لِعُثْمَانَ»^(٢)، هذا الذي أشار إليه بقوله: «بَايَعَ عَنْهُ سَيِّدُ الْأَكْوَانِ بِكَفِّهِ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ».



(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٦٩٨).

قال الناظم:

وَالرَّابِعُ ابْنُ عَمٍّ خَيْرِ الرُّسُلِ (٢٦٥) أَغْنِي الْإِمَامَ الْحَقُّ ذَا الْقَدْرِ الْعَلِيِّ
مُبِيدُ كُلِّ خَارِجِيٍّ مَارِقِ (٢٦٦) وَكُلُّ خَبٍّ رَافِضِيٍّ فَاسِقِ
مَنْ كَانَ لِلرُّسُولِ فِي مَكَانِ (٢٦٧) هَارُونَ مِنْ مُوسَى بِلَا نُكْرَانِ
لَا فِي نُبُوَّةٍ فَقَدْ قَدَّمْتُ مَا (٢٦٨) يَكْفِي لِمَنْ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ سَلِمَا



قال الشارح:

قوله: «الرَّابِعُ»: في الفضل والخلافة.

قوله: «ابْنُ عَمٍّ خَيْرِ الرُّسُلِ»: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «أَغْنِي الْإِمَامَ الْحَقُّ ذَا الْقَدْرِ الْعَلِيِّ»: وهو عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد استقرَّ أمر أهل السنة والجماعة على أنَّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما -كما في «صحيح البخاري»: «كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا نَفَاضِلُ بَيْنَهُمْ»^(١).

قوله: «مُبِيدُ»: أي مُفْنِي.

قوله: «كُلُّ خَارِجِيٍّ مَارِقِ»: أي مَارِقٍ من الدين، وقد وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الخوارج بذلك؛ قال: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(٢).

قوله: «وَكُلُّ خَبٍّ رَافِضِيٍّ فَاسِقِ»: الخِبُّ: الخَدَاغُ الخائن.

قوله: «مَنْ كَانَ لِلرُّسُولِ فِي مَكَانِ»: أي في منزلة.

قوله: «هَارُونَ مِنْ مُوسَى بِلَا نُكْرَانِ»: أي في الاستخلاف، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ استخلف

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٦٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٦١٠)، ومسلم في «الصحيح» (١٠٦٤).

هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في مدة الميعاد، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استخلف عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة تبوك، يشير إلى ما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخَلِّفُنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١).

قوله: «لَا فِي نُبُوَّةٍ»: أي ليس بمنزلة هارون من موسى في النبوة؛ بل في الاستخلاف.

قوله: «فَقَدْ قَدَّمْتُ مَا يَكْفِي لِمَنْ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ سَلِمًا»:

يشير إلى قوله:

«وَكُلُّ مَنْ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ ادَّعَى نُبُوَّةً فَكَاذِبٌ فِيمَا ادَّعَى
فَهُوَ خَتَامُ الرُّسُلِ بِاتِّفَاقٍ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٤٤١٦)، ومسلم في «الصحيح» (٢٤٠٤).

قال الناظم:

فَالسَّيِّئَةُ الْمَكْمُلُونَ الْعَشْرَةَ (٢٦٩) وَسَائِرُ الصَّحْبِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةَ
وَأَهْلُ بَيْتِ الْمُصْطَفَى الْأَطْهَارِ (٢٧٠) وَتَابِعُوهُ السَّادَةَ الْأَخْيَارَ
فَكُلُّهُمْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ (٢٧١) أَتَنَى عَلَيْهِمْ خَالِقُ الْأَكْوَانِ
فِي الْفَتْحِ وَالْحَدِيدِ وَالْقِتَالِ (٢٧٢) وَغَيْرَهَا بِأَكْمَلِ الْخِصَالِ
كَذَاكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (٢٧٣) صِفَاتُهُمْ مَعْلُومَةُ التَّفْصِيلِ

قال الشارح:

قوله: «فَالسَّيِّئَةُ الْمَكْمُلُونَ الْعَشْرَةَ»: أي يلي الخلفاء الراشدين الأربعة -أبا بكر، وعمر،
وعثمان، وعلياً رضي الله عنهم - في الفضل بقية العشرة المبشرين بالجنة.

وقد جمعهم ابن أبي داود في الحائية في قوله:

سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وَابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَعَامِرٌ فَهَرٍ وَالزُّبَيْرُ الْمَدْحُ

سعيد بن زيد، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله،
وأبو عبيدة عامر بن الجراح، والزبير بن العوام.

فهؤلاء الستة مع الخلفاء الراشدين الأربعة هم العشرة المبشرون بالجنة، وإنما قيل
لهم: العشرة المبشرون بالجنة؛ لأنهم جمعهم حديث واحد؛ هو قوله صلى الله عليه وسلم: «أَبُو
بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ
فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ
بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ»^(١)، وإلا فالمبشرون بالجنة من الصحابة أكثر من ذلك.

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤٦٤٩)، وأبو داود في «السنن» (٣٧٤٧)، والترمذي في «الجامع»

(١٥٨٤)، وابن ماجه في «السنن» (١٣٣).

منهم ثابت بن قيس بن شماس، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١)، قال أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وبلال بن رباح قال له **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال له: «سَمِعْتُ خَشْخَشَةَ نَعْلَيْكَ فِي الْجَنَّةِ»^(٣)؛ وفي رواية: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»^(٤)، فهم أكثر من ذلك، وقد أوصلهم الشيخ عبدالعزيز السلمان **رَحِمَهُ اللَّهُ** في شرحه على الواسطية المسمّى: «الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية» إلى واحد وأربعين، ولو تتبعهم مُتَّبِعٌ لَزَادُوا عَلَى هَذَا الْعَدَدِ.

قوله: «وَسَائِرُ الصَّحْبِ الْكَرَامِ الْبَرَرَةِ»: الذين اختارهم الله لصحبة نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ونصرة دينه.

قوله: «وَأَهْلُ بَيْتِ الْمُصْطَفَى الْأَطْهَارِ»: من عقيدة أهل السنة والجماعة: أَنَّهُمْ يَحْبُونَ آلَ بَيْتِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ويتولّونهم -من الموالاة؛ وهي المحبة والنصرة-، ويحفظون فيهم وصية النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** حيث قال يوم غدير حُم -وهو ماءٌ بين مكة والمدينة-: «أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(٥)؛ أي اذكروا خوفه إن أضعتم حقهم، واذكروا رحمته إن قتمت بحقهم، وهذا الذي قاله النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** هو في «صحيح مسلم»، وقد زاد عليه أهل البدع روايات منكّرة اختلقوها عظموا بها يوم الغدير، وصيّروه عيداً يُحتفل به، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، وأهل

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١١٩).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١١٩).

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٦٨٩)، وأحمد في «المسند» (٢٣٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» (١١٤٩)، ومسلم في «الصحيح» (٢٤٥٨)، واللفظ للبخاري.

(٥) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٤٠٨).

البيت وآل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بمعنى واحد، وهو ينطبق على ثلاثة:

الأول: ذريته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ولم يبق من ذريته إلا من كان من نسل فاطمة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**.

الثاني: أزواجه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وهنَّ أمهات المؤمنين، وقد قال الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿إِنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والسِّيَاق

كلُّهُ في نساء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالنَّصِّ الصريح، وزوجاته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قد جمعهنَّ

الشيخ غالي بن المختار فال الأنصاري الشنقيطي **رَحِمَهُ اللَّهُ** في «نظم أمهات المؤمنين» في

قوله:

أَوَّلُهُنَّ حِيَّتْ تَزْوِجَـهُ	خَيْرُ النِّسَاءِ أُمَّنَا خَدِجَـهُ
فَسَوْدَةُ عَائِشَةُ فَحَفْصَةُ	فَزَيْنَبُ فَهِنْدُ ثُمَّ بَرَّةُ
أَيُّ زَيْنَبُ فَأُمَّنَا جَوَيْرِيَةُ	فَرَمْلَةُ صَفِيَّةُ النَّضِيرِيَةُ
فَأُمَّنَا أُخْتُ بَنِي هِلَالٍ	مَيْمُونَةُ صَاحِبَةُ الْكَمَالِ

الثالث: بنو هاشم؛ قبيلته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الأذنون.

فوصف آل البيت يصدق على هؤلاء الثلاثة؛ ذريته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وأزواجه أمهاتُ

المؤمنين، وبنو هاشم، وقد جمعهم النَّاطِمُ في قوله:

أَلْ نَبِيَّنا الْكَرِيمِ إِن تَسَلْ زَوْجَاتُهُ وَهَاشِمٌ وَمَنْ نَسَلْ

قوله: «وَهَاشِمٌ»: أي بنو هاشم.

قوله: «وَمَنْ نَسَلْ»: أي من نسل منه؛ أي ذريته.

ولهم ميزتان:

الأولى: المحبة في الإسلام.

الثانية: المحبة لقرباتهم من النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وذلك بمحببتهم، والصلاة عليهم،

والدعاء لهم، وتقديمهم، وإكرامهم، وقد قال أبو بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - كما في الصحيحين -:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي»^(١)، وفي البخاري عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢)، وروى ابنُ سعد في «الطبقات»، عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهِ لَا إِسْلَامَ لَكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ، مَا بِي إِلَّا أَنْ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ»^(٣).

قوله: «وَتَابِعُوهُ»: أي تابِعُوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

قوله: «السَّادَةُ الْأَخْيَارُ»: قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، الآية.

قوله: «فَكُلُّهُمْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ أَتَنَّى عَلَيْهِمْ خَالِقُ الْأَنْوَانِ فِي الْفَتْحِ»:

في سورة الفتح في آيات كثيرة، كما قال ابنُ أبي داود في «الحائية»:

وَفِي الْفَتْحِ آيٌ لِلصَّحَابَةِ تَمْدَحُ

في الصفحة الأولى من سورة الفتح ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]؛ وفي الصفحة الثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وفي الثالثة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، زَكَّى باطنهم بعد أن زَكَّى ظاهرهم، وفي الرابعة: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وفي الصفحة الأخيرة:

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٧١١)، ومسلم في «الصحيح» (١٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٧١٣).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢٠ / ٤) بنحوه.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، الآية.

«والْحَدِيدُ»: في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

قوله: «وَالْقِتَالُ»: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [٢] ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢-٣].

قوله: «وَعَبْرَتُهَا بِأَكْمَلِ الْخِصَالِ»: وفي نسخة: «وَالْحَشَرِ وَالتَّوْبَةِ وَالْأَنْفَالِ».

في سورة الحشر قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؛ هذه في مدح المهاجرين، ثم الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ثم أثنى على من جاء بعدهم وكان سليم الصدر تجاههم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي سورة التَّوْبَةِ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية.

وفي سورة الأنفال آيات منها قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ

مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ [الأنفال: ١١].

قوله: «كَذَاكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ صِفَاتُهُمْ مَعْلُومَةٌ التَّفْصِيلُ»: كما قال تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿سُبْحَانَ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]: أي صِغَارُهُ، ﴿فَنَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ أي قَوِيَّ وَغَلُظَ وَقَامَ عَلَى سَيْفَانِهِ، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، هذا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلصَّحَابَةِ، فهم كالزَّرْعِ في نفعهم الخلق، واحتياج الناس إليهم، فالله **عَزَّجَلَّ** أثنى على صحابة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في التوراة والإنجيل قبل أن يُخلَقُوا.



قال الناظم:

وذكرهم في سَنَةِ الْمُخْتَارِ (٢٧٤) قَدْ سَارَ سَيْرَ الشَّمْسِ فِي الْأَقْطَارِ
ثُمَّ السُّكُوتُ وَاجِبٌ عَمَّا جَرَى (٢٧٥) بَيْنَهُمْ مِنْ فِعْلِ مَا قَدْ قُدِّرَا
فَكُلُّهُمْ مُجْتَهِدٌ مُّثَابٌ (٢٧٦) وَحَطُّوهُمْ يَغْفِرُهُ الْوَهَّابُ



قال الشارح:

قوله: «وذكرهم في سَنَةِ الْمُخْتَارِ»: **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

قوله: «قَدْ سَارَ سَيْرَ الشَّمْسِ فِي الْأَقْطَارِ»: الثَّناء على الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** في سنة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كثيرٌ مستفيض؛ من ذلك: ما في الصحيحين من قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «خَيْرُ

النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١)، وما في الصحيحين -أيضاً- من قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٢)، وهذا حديثٌ عظيمٌ يتحيرُّ العقلُ في تصوُّرٍ وإدراكٍ حقيقة ما فيه؛ جبلٌ أحدٌ طوله: سبعة كيلو متر تقريباً، وعرضه: ما بين اثنين كيلو متر إلى ثلاثة، وارتفاعه: أكثر من ألف متر، إذا كان هذا طولُ هذا الجبل وعرضه وارتفاعه، فكم وزنه؟! لو أن أحداً أنفقَ هذا القدر العظيم، والنَّفَقَةُ كُلُّهَا من الذهب، ما أعظم ثوابه عند الله؛ لكن انظر في المقابل: المدُّ الذي هو ملءُ الكفين مجموعتين غير مقبوضتين ولا مبسوطتين:

وَالْمُدُّ حَفْنَةٌ بِحَفْنَةِ الرَّجُلِ لَيْسَ بِقَابِضٍ لَهَا وَلَا مُجِلٌّ

ونصفُ المدِّ: ملءُ كفٍّ واحدة؛ أي تقريباً: ربع كيلو من الأرز، الصَّحَابِيُّ لو تصدَّق بهذا المقدار بملءِ كفٍّ واحدة فأجره أعظمُ من ذاك الذي أنفقَ مثل جبلٍ أحدٍ ذهباً، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ [النساء: ٧٠]، ثم هذا الخطاب متوجَّه إلى متأخري الصحابة، أي لو أنفقَ أحدٌ متأخري الإسلام من الصحابة مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدُّ أحدٍ متقدميهم ولا نصيفه، فما الظنُّ في فضيلة الصحابة على من جاء بعدهم، وما أجمل ما قاله عبدالله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** -كما في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر: قال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «من كان منكم متأسياً فليتأسَّ بأصحاب محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيِّه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم».



(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٦٥٢)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٦٧٣)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٤٠).

قال الناظم:

ثُمَّ السُّكُوتُ وَاجِبٌ عَمَّا جَرَى (٢٧٥) بَيْنَهُمْ مِنْ فِعْلٍ مَا قَدْ قُدِّرَا
فَكُلُّهُمُ مُجْتَهِدٌ مَثَابُ (٢٧٦) وَخَطُّهُمْ يُغْفَرُهُ الْوَهَّابُ

قال الشارح:

من أصول أهل السنة والجماعة: سلامه قلوبهم وألستهم لأصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فالواجب: السُّكُوتُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - كما في الصحيحين -: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»^(١)، وورد عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»^(٢)؛ أي إذا ذكروا بغير الجميل فأمسكوا، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «يَا ابْنَ أُخْتِي أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فَسَبُّهُمْ»^(٣)، وقال عمر بن عبدالعزيز: «تلك دماء طهر الله منها يدي، فلا أحب أن أخضب بها لساني»^(٤)، وقال آخر وقد سُئِلَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقد قال القحطاني في «النونية»:

دَغَ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الْوَعَى بِسُيُوفِهِمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٣٦٧٣)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٣٠٢٢).

(٤) ذكره البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٤٩).

فَقَتَرِيْلُهُمْ مِنْهُمْ وَقَاتِلُهُمْ لَهُمْ
وَاللّٰهُ يَوْمَ الْحَشْرِ يَنْزِعُ كُلَّ مَا
وَكِلَاهُمَا فِي الْحَشْرِ مَرْحُومَانِ
تَحْوِي صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ

وهذه الأخبار لا تؤخذ من كتب التاريخ التي لا يُميّز فيها بين الغثّ والسّمين؛ وإنّما
تؤخذ من صحيح السنة، قال القحطاني في «النونية»:

لَا تَقْبَلَنَّ مِنَ التَّوَارِيخِ كُلِّ مَا جَمَعَ الرُّوَاةُ وَخَطَّ كُلُّ بَنَانٍ
ارْوِ الْحَدِيثَ الْمُنْتَقَى عَنْ أَهْلِهِ سَيِّمًا أَوْلِيَ الْأَحْلَامِ وَالْأَسْنَانِ
كَابِنِ الْمَسِيْبِ وَالْعَلَاءِ وَمَالِكٍ وَاللَّيْثِ وَالزُّهْرِيِّ أَوْ سُفْيَانَ

هي فتنه وقعت وانقضت، فما الذي يُدخلك فيها؟! والذين يخوضون في هذا الباب لا
يكاد الواحد منهم يسلم قلبه للصحابة، في الغالب يخرج وقد تغَيَّرَ قلبه على بعض أصحاب
النبي ﷺ، لذا أطبقت كتب أهل السنة والجماعة على لزوم الكفّ والإعراض
والإمساك وعدم الخوض فيما جرى بين الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)، وما أجمل تلك الكلمة التي
ختم بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كلامه عن معتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة،
وهي من محاسن «العقيدة الواسطية»، قال: «ومن نظر في سيرة القوم بعلمٍ وبصيرة وما من الله
به عليهم من الفضائل؛ علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم،
وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى».



«خَاتِمَةٌ فِي وُجُوبِ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالرُّجُوعِ عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ إِلَيْهِمَا، فَمَا خَالَفَهُمَا فَهُوَ رَدٌّ».

شَرَطُ قَبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمَعَ (٢٧٧) فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ (٢٧٨) مُوَافَقَ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ
وَكُلُّ مَا خَالَفَ لِلْوَحْيَيْنِ (٢٧٩) فَإِنَّهُ رَدٌّ بَغَيْرِ مَنِينٍ
وَكُلُّ مَا فِيهِ الْخِلَافُ نُصَبَا (٢٨٠) فَارَدُّهُ إِلَيْهِمَا قَدْ وَجَبَا
فَالدِّينُ إِنَّمَا أَتَى بِالنَّقْلِ (٢٨١) لَيْسَ بِالْأَوْهَامِ وَحَدْسِ الْعَقْلِ

قال الشارح:

قوله: «شَرَطُ قَبُولِ السَّعْيِ»: أي الشرط في قبول العمل من العبد أن يجتمع فيه إصابَةٌ وإِخْلَاصٌ معاً، ثم فسر الإخلاص بقوله: «لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ»، وفسر الإصابة بقوله: «مُوَافَقَ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ»، وقد جمع هذين الشرطين قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَدِيقًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقد قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَلُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلْك: ٢]: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوِيئُهُ، قيل له: وما أَخْلَصُهُ وَأَصْوِيئُهُ؟ قال: «إِنْ الْعَمَلُ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»^(١).

قوله: «وَكُلُّ مَا خَالَفَ لِلْوَحْيَيْنِ»: الكتاب والسنة.

قوله: «فَإِنَّهُ رَدٌّ»: أي مردودٌ.

قوله: «بَغَيْرِ مَنِينٍ»: بغير كذب، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٢٢).

عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)؛ أي مردودٌ على صاحبه.

قوله: «وَكُلُّ مَا فِيهِ الْخِلَافُ نُسَبًا فَرْدُهُ إِلَيْهِمَا»: إلى الكتاب والسنة.

قوله: «قَدْ وَجَبَا»: قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

قوله: «فَالَّذِينَ إِنَّمَا آتَى بِالنَّقْلِ لَيْسَ بِالْأَوْهَامِ وَحَدْسِ الْعَقْلِ»: ليس الذين بالأوهام، ولا بالتخضصات، ولا بالظنون، ولا بحدس العقل؛ وإنما هو النقل عن الكتاب والسنة، والاتباع لسنة النبي ﷺ، ولما كان عليه صدر الأمة من الصحابة وتابعيهم بإحسان، وقد قال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢)، وقد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفَيْتُمْ»^(٣)، وقال رضي الله عنه: «عليكم بالعتيق»^(٤)؛ أي عليكم بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقال رضي الله عنه: «إنكم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحَدِّثُونَ ويحدث لكم، فإن رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول»^(٥)، ولقد أحسن القائل:

دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَخْبَارُ نَعَمَ الْمَطِيَّةِ لِلْفَتَى آثَارُ
لَا تَرْغَبَنَّ عَنِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ فَالرَّأْيُ لَيْلٌ وَالْحَدِيثُ نَهَارُ

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٦٩٧)، ومسلم في «الصحيح» (١٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» (٤٦٠٧)، والترمذي في «الجامع» (٢٦٧٦)، وابن ماجه في «السنن»

(٤٣).

(٣) أخرجه الدارمي في «المسند» (٢١١).

(٤) أخرجه الدارمي في «المسند» (١٤٤).

(٥) أخرجه محمد بن نصر في «السنة» (٨٠).

وَلَرَبَّمَا جَهَلَ الْفَتَى أَثَرَ الْهُدَى وَالشَّمْسُ بَارِغَةٌ لَهَا أَنْوَارُ



﴿ قَالَ النَّازِمُ: ﴾

ثُمَّ إِلَى هُنَا قَدْ انْتَهَيْتُ (٢٨٢) وَتَمَّ مَا بِجَمْعِهِ غِيَتْ
 سَمِيئُهُ بِسَلَّمَ الْوُصُولِ (٢٨٣) إِلَى سَمَا مَبَاحِثِ الْأُصُولِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى انْتِهَائِي (٢٨٤) كَمَا حَمَدْتُ اللَّهَ فِي ابْتِدَائِي
 أَسْأَلُهُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ (٢٨٥) جَمِيعَهَا وَالسَّيِّئَاتِ لِلْعُيُوبِ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبَدًا (٢٨٦) تَغْشَى الرَّسُولَ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدًا
 ثُمَّ جَمِيعَ صَحْبِهِ وَالْآلِ (٢٨٧) السَّادَةِ الْأَنْمَةِ الْأَبْدَالِ
 تَدُومُ سَرْمَدًا بِلَا نَفَادٍ (٢٨٨) مَا جَرَتْ الْأَقْلَامُ بِالْمَدَادِ
 ثُمَّ الدُّعَا وَصِيَّةُ الْقُرَّاءِ (٢٨٩) جَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِثْنَاءِ
 أَيْبَاتِهَا (يُسْرَ) بَعْدَ الْجَمَلِ (٢٩٠) تَأْرِخُهَا (الْغُفْرَانُ) فَافْهَمْ وَادْعُ لِي



﴿ قَالَ الشَّارِعُ: ﴾

قوله: «ثُمَّ إِلَى هُنَا قَدْ انْتَهَيْتُ»
 سَمِيئُهُ بِسَلَّمَ الْوُصُولِ
 وتَمَّ مَا بِجَمْعِهِ غِيَتْ
 إِلَى سَمَا مَبَاحِثِ الْأُصُولِ:

المراد: علم الاعتقاد، وفيه: إشارة إلى أنه أعلى العلوم وأرفعها، قال: «إلى سَمَا مَبَاحِثِ

الْأُصُولِ»، ولأجل تحقيقه خُلِقَ الْخُلُقُ، وعليه يُرَتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ.

قوله: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى انْتِهَائِي»
 أَسْأَلُهُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ
 كَمَا حَمَدْتُ اللَّهَ فِي ابْتِدَائِي
 جَمِيعَهَا وَالسَّيِّئَاتِ لِلْعُيُوبِ

ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبَدًا تَغْشَى الرَّسُولَ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدًا

ثُمَّ جَمِيعَ صَحْبِهِ وَالْآلِ السَّادَةِ الْأَيُّمَّةِ الْأَبْدَالِ:

الأبدال: هم القائمون بنصرة الدين يخلفُ بعضهم بعضا في ذلك، ولا يصح في ذكر الأبدال حديث كما قرره ابنُ القيم في «المنار المنيف»، وقد استعمله غير أهل السنة على معانٍ باطلة من التصرُّف في الكون، لكن المعنى المقصود فيما جاء من آثارٍ عن السلف: هو ما سبق من أنَّهم القائمون بنصرة الدين وتجديده.

قوله: «تَدُومُ سَرْمَدًا»: أبداً.

قوله: «بِلا نَفَادٍ»: بلا انقطاع.

قوله: «مَا جَرَتْ الْأَقْلَامُ بِالْمِدَادِ»: مدة جريان الأقلام بالمداد؛ أي بالحبر، والمقصود: أنَّها صلاة وسلامٌ دائمان مُمتدَّان.

قوله: «ثُمَّ الدُّعَا وَصِيَّةُ الْقُرَّاءِ جَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِثْنَاءٍ»: أسأل الله أن يغفر للشيخ حافظ، وأن يرحمه، وأن يجعل ما تعلَّمناه في ميزان حسناته.

قوله: «أَبْيَاتُهَا (يُسْرٌ) بَعْدَ الْجُمْلِ»: عَدُّ الْجُمْلِ -بتشديد الميم-، أو حساب الجُمْلِ: طريقة حسابية معروفة عند العرب يرمزون فيها لكل حرف من الحروف الأبجدية برقم، وذلك بعد ترتيبها على هذا النحو: أَبْجَدْ هَوَزْ حُطِّي كَلِمُنْ سَعْفَصْ قَرَشَتْ تَخَذْ ضَظْغ، الياء في حساب الجُمْلِ: عشرة، والسين: بستين، والراء: بمائتين، فالمجموع: مائتان وسبعون، والمقصود: الأبيات التي عرض فيها الأحكام والمسائل دون المقدمة والخاتمة، وفي «معارج القبول» قال: «أَبْيَاتُهَا الْمُقْصُودُ يُسْرٌ فَاغْقِلِ»، وفَسَّرَ المقصود بالذي فيه الأحكام والمسائل.

قوله: «تَأْرِيحُهَا (الْغُفْرَانُ) فَافْهَمْ وَادْعُ لِي»: الغفران: الألف: بواحد، واللام: بثلاثين، والغين: بألف، والفاء: بثمانين، والراء: بمائتين، والألف الثانية: بواحد، والنون: بخمسين؛ فالمجموع: ألف وثلاث مئة واثنان وستون، هذا تاريخ نُظِمَها، نُظِمَها سنة ألفٍ وثلاث مئة

واثنتين وستين، وكان عمر الناظم رَحِمَهُ اللهُ حِينَئِذٍ: عشرين عامًا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله

وصحبه أجمعين.





فهرس المحتويات

٦.....	أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا * رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرًا مُعِينًا.
١٢.....	اعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا * لَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا.
١٨.....	أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ * مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ.
٣٠.....	حَيٌّ وَقَيُّومٌ فَلَا يَنَامُ * وَجَلَّ أَنْ يُشَبِّهَهُ الْإِنْسَانُ.
٣٢.....	بَاقٍ فَلَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ * وَلَا يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ.
٣٦.....	وَهُوَ الَّذِي يَرَى دَيْبَ الذَّرِّ * فِي الظُّلُمَاتِ فَوْقَ ضُمِّ الصَّخْرِ.
٣٨.....	وَسَامِعٌ لِلْجَهْرِ وَالْإِخْفَاتِ * بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلْأَصْوَاتِ.
٤٠.....	وَعِلْمُهُ بِمَا بَدَأَ وَمَا خَفِيَ * أَحَاطَ عِلْمًا بِالْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ.
٤١.....	وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ * جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ.
٤٢.....	كَلَّمَ مُوسَى عَبْدَهُ تَكْلِيمًا * وَلَمْ يَزَلْ بِخَلْقِهِ عَلِيمًا.
٤٤.....	وَالْقَوْلُ فِي كِتَابِهِ الْمُفَصَّلِ * بِأَنَّهُ كَلَامُهُ الْمُتَمَزِّلُ.
٤٨.....	يُحْفَظُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ * يُتَلَّى كَمَا يُسْمَعُ بِالْأَذَانِ.
٥٠.....	وَقَدْ رَوَى الثَّقَاتُ عَنْ خَيْرِ الْمَلَائِكَةِ * أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَا.
٥٤.....	وَأَنَّهُ يَجِيءُ يَوْمَ الْفَصْلِ * كَمَا يَشَاءُ لِلْقَضَاءِ الْعَدْلِ.
٥٥.....	وَأَنَّهُ يَرَى بِلَا انْكَارٍ * فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ بِالْأَبْصَارِ.
٥٧.....	وَكُلُّ مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ * أَثْبَتَهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ.
٦٠.....	وَسَمَّ ذَا النُّوعِ مِنَ التَّوْحِيدِ * تَوْحِيدَ إِثْبَاتِ بِلَا تَرْدِيدِ.
٦٢.....	هَذَا وَثَانِي نَوْعِي التَّوْحِيدِ * إِفْرَادُ رَبِّ الْعَرْشِ عَنْ نَدِيدِ.
٦٣.....	وَهُوَ الَّذِي بِهِ الْإِلَهَ أَرْسَلَا * رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَوَّلًا.

- وَكَلَّفَ اللَّهُ الرَّسُولَ الْمُجْتَبَى * قِتَالَ مَنْ عَنْهُ تَوَلَّى وَأَبَى ٦٤
- وَقَدْ حَوَتْهُ لَفْظَةُ الشَّهَادَةِ * فَهِيَ سَبِيلُ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ ٦٥
- فَإِنْ مَعَنَاهَا الَّذِي عَلَيْهِ * دَلَّتْ يَقِينًا وَهَدَتْ إِلَيْهِ ٦٦
- وَبَشُرُوطِ سَبْعَةٍ قَدْ قِيدَتْ * وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ ٦٧
- ثُمَّ الْعِبَادَةُ هِيَ اسْمُ جَامِعٍ * لِكُلِّ مَا يَرْضَى إِلَهُ السَّامِعِ ٧١
- وَالشِّرْكُ نَوْعَانِ: فَشِرْكٌ أَكْبَرُ * بِهِ خُلُودُ النَّارِ إِذْ لَا يُعْفَرُ ٧٧
- وَمَنْ يَثِقُ بِوَدْعَةٍ أَوْ نَابٍ * أَوْ حَلَقَةٍ أَوْ أَعْيُنِ الذَّنَابِ ٨٤
- ثُمَّ الرُّقَى مِنْ حُمَةٍ أَوْ عَيْنٍ * فَإِنْ تَكُنْ مِنْ خَالِصِ الْوَحْيَيْنِ ٨٦
- أَمَّا الرُّقَى الْمَجْهُولَةُ الْمَعَانِي * فَذَاكَ وَسْوَاسُ مِنَ الشَّيْطَانِ ٨٨
- وَفِي التَّمَائِمِ الْمُعَلَّقَاتِ * إِنْ تَكُ آيَاتٍ مُبَيَّنَاتٍ ٨٩
- وَإِنْ تَكُنْ مِمَّا سَوَى الْوَحْيَيْنِ * فَإِنَّهَا شِرْكٌ بَغِيرِ مَيْنِ ٩٠
- هَذَا وَمِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ * مِنْ غَيْرِ مَا تَرَدَّدٍ أَوْ شَكٍّ ٩١
- ثُمَّ الزِّيَارَةُ عَلَى أَفْسَامٍ * ثَلَاثَةٌ يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ ٩٤
- وَمَنْ عَلَى الْقَبْرِ سَرَجًا أَوْ قَدَا * أَوْ ابْتَنَى عَلَى الصَّرِيحِ مَسْجِدًا ٩٨
- وَالسَّحَرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرٌ * لَكِنْ بِمَا قَدَرَهُ الْقَدِيرُ ١٠٥
- اعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ * فَاحْفَظْهُ وَافْهَمْ مَا عَلَيْهِ ذَا اشْتَمَلِ ١١٢
- فَقَدْ أَتَى الْإِسْلَامَ مَبْنِيًّا عَلَى * خَمْسٍ فَحَقِّقْ وَادِرِ مَا قَدْ نُقِلَا ١١٥
- فَتِلْكَ خَمْسَةٌ وَلِلْإِيمَانِ * سِتَّةٌ أَرْكَانٍ بَلَا نُكْرَانِ ١١٨
- وَبِالْمَعَادِ أَيْقَنَ بَلَا تَرَدُّدٍ * وَلَا ادَّعَا عِلْمَ بَوَاقِ الْمَوْعِدِ ١٢٢
- وَيَدْخُلُ الْإِيمَانُ بِالْمَوْتِ * وَمَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الْعِبَادِ حُتِمًا ١٢٤
- وَبِاللِّقَا وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ * وَبِقِيَامِنَا مِنَ الْقُبُورِ ١٢٥
- وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ * جَمِيعُهُمْ عَلَوِيُّهُمْ وَالسُّفْلِي ١٢٩
- وَالْوِزْنُ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا * يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَى مَا عَمِلَا ١٣٥
- وَيَنْصَبُ الْجِسْرُ بَلَا امْتِرَاءٍ * كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الْأَنْبَاءِ ١٣٧

- وَالنَّارُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَهُمَا * مَوْجُودَتَانِ لَا فَنَاءَ لَهُمَا ١٤٠
- وَحَوْضُ خَيْرِ الْخَلْقِ حَقٌّ وَبِهِ * يَشْرَبُ فِي الْأُخْرَى جَمِيعُ حَزْبِهِ ١٤١
- كَذَا لَهُ لِيَوَاءِ حَمْدٌ يُنْشَرُ * وَتَحْتَهُ الرُّسُلُ جَمِيعًا تُحْشَرُ ١٤٤
- كَذَا لَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى كَمَا * قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا تَكْرُمًا ١٤٥
- وَالسَّادِسُ الْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ * فَأَيُّقِنَنَّ بِهَا وَلَا تُمَارِ ١٥٠
- لَا نَوْءَ لَا عَدَوَى وَلَا طَيْرَ وَلَا * عَمَّا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى حَوْلًا ١٥٢
- وَتَالِثُ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ * وَتِلْكَ أَعْلَاهَا لَدَى الرَّحْمَنِ ١٥٥
- إِيمَانَنَا يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ * وَنَقْصُهُ يَكُونُ بِالزَّلَّاتِ ١٥٧
- نَبِينَا مُحَمَّدٌ مِنْ هَاشِمٍ * إِلَى الدِّيْحِ دُونَ شَكٍّ يَتِمِّي ١٦٦
- وَبَعْدَ أَعْوَامٍ ثَلَاثَةٍ مَضَتْ * مِنْ بَعْدِ مِعْرَاجِ النَّبِيِّ وَانْقَضَتْ ١٦٨
- وَبَعْدَ أَنْ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ * وَاسْتَنْقَذَ الْخَلْقَ مِنَ الْجَهَالَةِ ١٦٩
- وَكُلُّ مَنْ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ ادَّعَى * نُبُوَّةً فَكَاذِبٌ فِيمَا ادَّعَى ١٧٠
- وَبَعْدَهُ الْخَلِيفَةُ الشَّفِيقُ * نِعَمَ نَقِيبُ الْأُمَّةِ الصَّدِيقُ ١٧٢
- ثَانِيهِ فِي الْفَضْلِ بِلَا ارْتِيَابٍ * الصَّادِعُ النَّاطِقُ بِالصَّوَابِ ١٧٣
- ثَالِثُهُمْ عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ * ذُو الْحِلْمِ وَالْحَيَا بَغِيرِ مَيْنِ ١٧٤
- وَالرَّابِعُ ابْنُ عَمٍّ خَيْرِ الرُّسُلِ * أَغْنِي الْإِمَامَ الْحَقَّ ذَا الْقَدْرِ الْعَلِيِّ ١٧٦
- فَالسَّنَةُ الْمَكْمُلُونَ الْعَشْرَةَ * وَسَائِرُ الصَّحْبِ الْكِرَامِ الْبِرَّةَ ١٧٨
- وَذَكَرَهُمْ فِي سَنَةِ الْمَخْتَارِ * قَدْ سَارَ سِيرَ الشَّمْسِ فِي الْأَفْطَارِ ١٨٣
- ثُمَّ السُّكُوتُ وَاجِبٌ عَمَّا جَرَى * بَيْنَهُمْ مِنْ فِعْلٍ مَا قَدْ قُدِّرَا ١٨٥
- شَرْطُ قُبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا * فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَا ١٨٧
- ثُمَّ إِلَى هُنَا قَدْ انْتَهَيْتُ * وَتَمَّ مَا بِجَمْعِهِ عُنِيتُ ١٨٩